محمد كامل حته

اقرأ

الشاعر الشهيد
هاشم الرفاعي



دار المعارف بمصر

الشاعر الشهيد

هاشم الرفاعي

محمد كامل حته

الشاعر الشهيد
هاشم الرفاعي

اقرأ ٢٢٣

دار المعارف بمصر

مقدمة

كان الأفق تكسوه حمرة قانية كالدم ، عند غروب شمس يوم الأربعاء الثانى من شهر يولية عام ١٩٥٩ .

وكأنما كانت الطبيعة تعكس فى تلك اللحظات ، صورة المأساة التى استشهد فيها الشاعر هاشم الرفاعى .. صورة الدم الزكى الذى تخضبت به حديقة النادى ، بعد أن سدد الجناة إلى قلب الشاعر طعنات غادرة !

وهكذا ودع هاشم الرفاعى الحياة . . .

ولم يكن الشاعر الشهيد قد جاوز الرابعة والعشرين إلا بقليل . . .

حياة قصيرة إذا قيست بالأعوام والشهور . . .

ولكنها حياة طويلة ، عميقة ، فسيحة .. بما زخرت به من مثل كريمة ، وتجارب مضيئة ، وشاعرية تضعه وهو فى سنه تلك بين أعلام الشعراء ؛ فكيف إذا امتد به الأجل فبلغ من العمر مبلغ أولئك الأعلام ؟ !

وبعد ، فهذه دراسة لحياة الشاعر الشهيد هاشم الرفاعى وفنه ، نقدمها تحية لذكراه الخالدة . . .

١

هذا شاعر جاء مع الثورة العربية الكبرى على ميعاد ، وكأنه ظاهرة من ظواهرها المضيئة على حاشية الأفق ، وصورة من وجدانها تمثل حقيقة مجنحة فى سماء القومية العربية .

مع إرهاصات الثورة كان مولد الشاعر[١] ، وفى بيئة عربية مؤمنة كان مرباه ، وفى إحدى المناطق التى كانت أكثر معاناة لنكبة الاستعمار والإقطاع كان مثار شاعريته ، وفى طلائع المعركة كانت بواكير فنه .

وهو إلى ذلك شاعر اهتدى إلى حقيقته ، وآمن بدينه ولغته وقوميته ، وحمل أمانته نحو فنه وأمته ، وملك أداة بيانه ، ثم انطلق يشدو ويحدو فى موكب البعث والبناء ، بألحان أصيلة المشاعر ، صادقة التعبير ، رائعة الأداء .

ذلك هو الشاعر الشاب الشهيد : هاشم الرفاعى . . .

ولهذا كانت الفجيعة فيه فجيعة أمة كانت تفتقد مثل هاشم الرفاعى فى خلقه ووعيه وشاعريته ، ليكون برهان هذه الأمة على أن فى شبابها هذا الطراز القوى المؤمن ، الذى لم يفتنه

---

(١) ولد الشاعر سنة ١٩٣٥ وهى السنة التى بدأت فيها إشعاعات الثورة فى نفس الرئيس جمال عبد الناصر – « كتاب فلسفة الثورة » .

عن دينه ولغته وقوميته ما تسلل إلى المجتمع واندس فى أعماقه من العوامل الدخيلة التى فتنت الكثيرين . . .

هذا الشباب الذى وصفه الشاعر فى صورة رائعة ، هى انعكاس لحياته ومبادئه فى الحياة :

شباب لم تحطمه الليالى ولم يُسلم إلى الخصم العرينا
ولم تشهدهم الأقداح يوماً وقد ملأوا نواديهم مجونا
وما عرفوا الأغانى مائعات ولكن العلا صيغت لحونا
وقد دانوا بأعظمهم نضالا وعلما ، لا بأجرئهم عيونا
فيتحدون أخلاقاً عذاباً ويأتلفون مجتمعاً رزينا
فما عرف الخلاعة فى بنات ولا عرف التخنث فى بنينا
ولم يتشدقوا بقشور علم ولم يتقلبوا فى الملحدينا
إذا شهدوا الوغى كانوا كماة يدكون المعاقل والحصونا
وإن جن المساء فلا تراهم من الإشفاق إلا ساجدينا

وكما كانت حياة هاشم الرفاعى من براهين هذه الأمة التى ردت إليها إيمانها بمقوماتها الأصيلة ، ومناعتها ضد ما حشد لها العدو على تعاقب عصور وأجيال من مؤامراته الظاهرة والخفية ، كذلك كان استشهاد هذا الشاعر فى باكورة شبابه ، برهان صدقه وإيمانه فى معركة القومية العربية ، وكانت دماؤه الزكية أروع ملاحمه وأخلد ألحانه . .

٢

فى بلدة « إنشاص » من إقليم الشرقية ولد هاشم الرفاعى عام ١٩٣٥ ، وكان أول ما صك مسمع الطفل يوم مولده أصداء ثورة الشباب فى سبيل الدستور ، وهى إحدى الانتفاضات الثائرة لضمير الأمة ضد الاحتلال وأعوانه، بذل الشباب فيها دمه . فكأنما كان مولده وقتئذ إرهاصاً بالصورة التى انطوى عليها ضمير الغيب لحياة هذا الشاعر واستشهاده . . .

ثم درج الطفل فى البيت الكبير ، فكان إذا وصل إلى بابه استرعى نظره ضريح جده الكبير السيد مصطفى الرفاعى ، وهو من أقطاب التصوف على عهده ، تخرج فى الأزهر وصار من علمائه ، وله مؤلفات فى التصوف والفقه والأدب ، وكان يقول الشعر وله فيه ديوان مخطوط .

وكانت أسرة الرفاعى فى إنشاص تتوارث ريادة التصوف والفقه والأدب ، وتجتمع لها من ذلك صورة للدعوة الدينية المستنيرة . وكذلك كان جد الشاعر وسميه السيد هاشم ابن السيد مصطفى الرفاعى ، فقد تلقى العلم على والده فى الأزهر ، ثم تولى مشيخة « الطريق » بعد أبيه ، وكان له تلاميذ ومريدون فى مختلف الأقاليم : فى الشرقية ، والدقهلية ، والقليوبية ،

والغربية ، والصعيد . وكان يطوف بهذه الأقاليم يفقه الناس فى الدين ، لا ينزل ببلد من بلادها حتى يبدأ بشرح « البخارى » فلا يغادر البلد إلا بعد تمامه . وهو إلى ذلك يروض الناس على الفضائل الدينية ، ويأخذهم بالتربية الروحية ، ويصرفهم بالمجاهدة عن كل زيغ أو انحراف . ومما يؤثر عنه أنه كان قوى الأثر فى هداية الخارجين على المجتمع ، المسرفين على أنفسهم وعلى الناس ، وأن الكثيرين من هؤلاء عادوا على يديه تائبين منيبين . . .

وخلفه من بعده ابنه السيد محمد جامع الصغير والد الشاعر. وكان كذلك عالماً متصوفاً يقول الشعر . سار على نهج أبيه وجده فى ريادة « الطريق » على ذلك الأسلوب الذى يتخذ من كتاب الله وحديث الرسول وفقه السنة دعامة للتصوف وشرعة للحياة . كان يؤدى مهمة الريادة فى طوافه على تلاميذه ومريديه فى مختلف البلاد ، وفى داره حيث يستقبل الوفود بعد الوفود من التلاميذ والمريدين ، وحيث كانت تعقد المجالس وتقام الليالى « الكبيرة » التى تشد إليها الرحال ، فى مختلف الذكريات الدينية :

يا راكب الوجناء قد حث الخطا
في إثر ركب فى الدجى متحمل

إن أبصرت عيناك شامخ قبة
غراء تجتاز السحاب وتعتــلى

ورأيت ساحات لهـا قد زينت
فبدت لعينك ذات ثوب أجمل
خفقت بها لله أرفـع رايـة
فى ظلها الأملاك تهبط من عل
فاقصد إلى بيت العلا من هاشم
وبباب أرباب النـدى فترجل
قسماً بهم لو زرتهم لوجـدتهم
أندى عليك من الغمام المثقـل
تلك المنازل قد أقام بها الهدى
عنها مـدى الأيام لم يتحـول
يرث السنا والمجد فيها كابـر
عن كابر ، علم ، أغرّ محجل *

وكان الطفل الصغير هاشم الرفاعى قد استوى على قدميه ، وتفتح وجدانه وعقله على ما يسمع ويرى وهو فى حجر أبيه الشيخ ، وهو جالس إلى جواره ، فى مجلس من مجالس العلم والعبادة والتوجيه ، أو فى مهرجان تخفق أعلامه وتأتلق أضواؤه وتتردد فى سمائه أصداء المشاعر الدينية الجميلة .

وكان ينفلت أحياناً من مجلس أبيه فى ليالى شهر رمضان ،

* من قصيدة للشاعر ألقاها فى الاحتفال بذكرى مولد جده الكبير .

وفى الليالى التى تحتفل فيها البلدة بالذكريات الدينية ، ليقضى جانباً كبيراً من الليل وهو يستمع إلى شاعر الربابة فى أحد المقاهى ينشد ملحمة أبى زيد الهلالى . وكان لكثرة تردده على مجلس الشاعر وافتتانه به قد حفظ — على صغر سنه — ملحمة أبى زيد الهلالى ، وكان كثيراً ما يجلس على « المصطبة » أمام البيت الكبير وحوله أترابه من الصبيان وهو ينشدهم هذه الملحمة . ولعله كان يحس أن افتتانهم به وبقدرته على الرواية والإنشاد ، لا يقل عن افتتانهم بالملحمة وبطلها الفارس الشاعر !

وكثيراً ما كان الصبى ينطلق مع أترابه إلى ظاهر البلدة ، حيث تمتد الحقول وتنساب الجداول وتنتشر ظلال الأشجار ويفوح عبير الأزهار ، وتتجاوب أصداء السواقى وأغاريد الطيور وأغانى الفلاحين والرعاة . . وتنعكس هذه الصور الطليقة الباسمة فى وجدان الصبى ، وتسكب فى روحه من موسيقاها المؤتلفة ما يبعث النشوة ويثير الخيال ، وينمى إحساسه بالحرية والجمال . .

فى ربوع ظلالها فتانه ... يبسط السحر فوقها ألوانه
صادح الطير فى رباها تغنى ... وشدا للخميلة الفينانه
وجرى الماء بالحياة نماء ... طرز العشب والندى غدرانه
ونسيم مؤرج قد تهادى ... فى مجون يراقص السنديانه
وعلى الشاطئ المقابل راع ... ساق للعشب فوقه قطعانه
وإذا ضمه من التوت ظل ... داعب الناى مرسلا ألحانه

بين تلك الربا وهذى المغانى والرؤى والمفاتن العريانه
قد عرفتُ الوجود طفلا بريئاً حظه منه أن يمص بنانه

وكانت ثمة حقائق مغلفة بالضباب تبدو أحياناً من وراء هذه الصور الجميلة ، يلمحها الصبى على وجوه مواطنيه ، ويتسمعها فى بعض ما يتهامسون به فى أحاديثهم وأسمارهم . إن هذه الأرض الطيبة التى تجود بالرزق الوفير وتفيض بالجمال الساحر ، ليس لأهلها من ذلك كله إلا همّ الليل وعناء النهار ، وإلا صبابة من الرزق يحصلون عليها فى ظل الاستغلال والإرهاب.

هذا الوجه الكريه للإقطاع ، كان يطالع أهل إنشاص كما يطالع ملايين المواطنين فى بلاد أخرى . وإن كانت صورته فى إنشاص أشد بشاعة . . لأنه إقطاع « ملكى » ؛ فلما أطاحت الثورة بالملكية انهار معها الإقطاع وانزاح عن صدر الشعب ذلك الكابوس الرهيب . وفى ذلك يقول الشاعر :

إنشاص تذكر بؤس أيام مضت
كانت عليها بالشقاء تمور[1]
هذى منازلها وتلك ضياعها
خطت عليها بالدموع سطور
ذاق الفقير بها الحياة ذميمة
يصليه من ظلم الطغاة سعير

---

(١) تمور : تضطرب .

وينتقل الشاعر من محيط قريته « إنشاص » إلى المحيط العام ، فيتحدث عن جرائم الإقطاع فى الريف وجناياته على المواطنين فيقول :

كم غاصب أرضاً لهم ، بسياطه
دميت جلود ألهبت وظهـــور
كم بالدم المهراق من أبـــدانهم
مُلــكت ضياع جمة وقصـــور
كم بالندى المنثال (١) فوق جباههم
حملت نُضاراً (٢) للنساء نحـــور
كم فاقد للقوت بات على الطوى
والرزق عنـــد المالــكين وفير
الغرس غرسهمُ ، وقد روّى الثرى
عَرَقٌ لهم فوق الجبـــاه غـــزير
عملوا له حتى بـــدت أثمـــاره
ما بال من لم يشق فيه يحور !
كم بانتقام الـــكاظمين لغيظهم
جاشت نفوس حـــرة وصـــدور

(١) المنثال : المتناثر .
(٢) النضار : الذهب .

كم باللظى المشبوب فى أعماقهم
لسقوط الاستبداد فاض شعور
وأخو الهوان – ولو يطول هوانه –
لا بـــد يوماً أنـــه سيثور

وهناك على الجانب الآخر من «أنشاص» كان يقوم قصر للطاغية الذى اغتصب هذه الأرض الطيبة ، وجعل من أهلها أجراء يسكبون فيها عرقهم وتتبخر دماؤهم ويذوب شبابهم ، ليذهب الطاغية بثمرات ذلك كله ، ولا يبقى لهم من المائدة – وهم أصحابها – إلا الفتات * . . .

وكان ذلك القصر الذى أقامه الطاغية بإنشاص ، أحد الأوكار التى اتخذها لمباذله وملذاته . ولم تكن الأسوار العالية والمناطق الحرام التى تحيط بالقصر ، لتمنع الأصداء الآثمة من أن تصل إلى الآذان ، فتضيف إلى عوامل السخط مادة جديدة تتهامس بها العيون والشفاه . .

ويسترجع الشاعر هذه الصورة بعد قيام الثورة ، من قصيدة له فيقول :

مرت بنا الأيام فى لون الدجى — أما الحياة فطعمها كالحنظل
حكمَ الكنانة خائنٌ مستهتر — طاغٍ ، بشأن بلاده لم يحفل

* كان للطاغية فاروق فى إنشاص إقطاعية ، اجتمعت فيها مساوىء الملكية والإقطاع معاً .

إن شيد للإصلاح صرح كرامة | يسعى إلى هدم البناء بمعول
سائل هناك القصر عن رب الهوى | والليل : كيف نهاية المتبذل؟
يا قصر: هل أغناه ما قد شمته | وشهدته من كل فعل مخجل!
تلك الرياض الناضرات كأنها | "عدن"، بها من كل واد مبقل
إبليس غادرها رجيماً إنـــه | لم يرع حق المنعم المتفضل

وتكتمل عناصر الصورة داخل الإطار . إن هذه المنطقة التي يقوم فيها الإقطاع « الملكي » بمظالمه ومباذله ، تقوم على مقربة منها إحدى قواعد الاحتلال البريطاني البغيض ، كأنما يقوم ذلك برهاناً على ما بين الملكية الفاسدة والاستعمار من قرب وقربى في المصالح والأهداف . وبذلك اكتملت عناصر الصورة أمام المواطنين في هذه المنطقة ، وتجسمت معانيها في خواطرهم ، وانعكست بعض ظلال هذه الصورة ومعانيها في خاطر الصبي ، على قدر ما يستوعب من هذه المعاني والظلال .

٣

من هذه الخيوط ، خيوط الوراثة والبيئة الطبيعية والاجتماعية ، نسج القدر الخلايا الأولى في حياة هذا الشاعر . ومن هذه الروافد أرضعته الطبيعة غذاء روحه ، وفي حضانة هذا « الجو » تفتحت مشاعره كما تتفتح البراعم في أحضان الربيع .

ثم بدأت ملكاته تنمو وتتعدد منذ التحق بالمعهد الديني بالزقازيق عام ١٩٤٧ ، وبدأ يقول الشعر وهو في الثالثة عشرة

من عمره ، كانت محاولات لم تلبث أن نضجت واستقامت معنى ومبنى ، وظهر شعره فى الصحف يحمل من عناصر التجربة النفسية والشعور القومى ، ومن حصيلة الثروة اللغوية والبيانية ما يسبق سنه الصغيرة بمراحل بعيدة .

وكانت الفترة التى قضاها بمعهد الزقازيق حتى عام ١٩٥٥ ذات أثر كبير فى إبراز معالم شخصيته ، فقد كانت فترة حافلة بالأحداث القومية التى سبقت الثورة ومهدت لها ، والتى صاحبت الثورة ومعاركها الأولى . وفى هذه الفترة كان الشاعر شديد الانفعال بإرهاصات الثورة لأنه كان يعيش فيها بوجدانه . وكانت له مواقف توصف بالتطرف والاندفاع فى الحركات القومية التى انبثقت فى صدور الشباب الأحرار بعد نكبة فلسطين ، فأقضت مضاجع قوات الاحتلال الرابضة فى منطقة القناة ، وزلزلت دعائم العرش الفاسد ، وأطاحت بالحكومات الصنيعة ، وبلغ السخط حداً أفلت معه الزمام فكان حريق القاهرة . . .

فى تلك الفترة كان الشاعر يقود الثورة فى معهد الزقازيق ضد الاحتلال وأعوانه ، وقد أطلقت عليه إذ ذاك * رصاصة كادت تودى بحياته !

وظل وجود هاشم الرفاعى بالمعهد يؤرق عيون رجال الأمن والمشرفين على المعهد . فقد كان حرباً لا تخبو نارها على

* عام ١٩٥٠ .

الاستعمار وصنائعه ، حتى صدر قرار بإبعاده عن المعهد وحرمانه من الدراسة بتهمة النشاط الفدائى ، ولما يتضمنه شعره من ثورة على الأوضاع القائمة . . .

وظل هاشم مبعداً عن المعهد فترة طويلة ، فلم تلن قناته ولم يستسلم لعوامل الطغيان من حرمان وإرهاب ، أو من ترغيب وإغراء ، حتى إذا عاد للمعهد عاد مرفوع الرأس قوى الشكيمة ، وفى ذلك يقول :

رجعنا ، وخاب المنذر المتوعد . وعدنا بعون الله والعود أحمد
خرجنا رجالا يعرف الكل بأسهم وجئنا وفى أضلاعنا العزم موقد
فما أوهن الإبعاد منا عزيمة ولا نال من أسد الشرى المتأسد

ثم يتحدث عن شيخ المعهد الذى أصدر قراراً بإبعاده ، وعن فريق من علماء الدين انحرفوا عن الجادة وتخلوا عن أمانة العلم والدين وشايعوا الطغيان وساروا فى ركابه . . فيقول :

فقولوا لشيخ السوء — لا بورك اسمه
ولا عاش باسم العلم فينا يقيد :
أجئت عميداً أم ترى جئت غازياً
فأنت على الطلاب صخر وجلمد
لحا الله أعواناً لئاماً تجمعـوا
هم الذئب غدراً والرياء المجسـد

ترى بينهم من يرتدى زى عالم
فقيه ، وفى الأثواب جهل مؤكد
وتحسبه عنـد الملاقاة مصلحـاً
ولـكنه فى الخبث والدس أوحـد
ذليل يرى الملك الذليل إلهـه
يـكاد له خوفاً يصلى ويسجـد !
وينصب فوق الرأس منـه عمامة
تشع بياضاً بينما القلب أسـود

وقبيل الثورة بأيام ، قامت وزارة النزع الأخير برياسة المرحوم أحمد نجيب الهلالى . ومنذ الليلة الأولى لقيام الوزارة كان منزل أسرة الرفاعى بإنشاص محاصراً بقوة عدتها سبعون جندياً ، جاءوا يبحثون فى مخابئ المنزل عن السلاح !

وتخيب هذه الحملة فيما قدمت من أجله ، ولكنها تأبى إلا أن تمعن فى الطغيان والإرهاب ، فلا تعود إلا والقيد فى يدى شقيق الشاعر الأكبر الأستاذ مصطفى الرفاعى ، ليقضى فى الاعتقال ما شاء له الطغاة . . .

كان ذلك ليلة ٢٠ يولية عام ١٩٥٢ .

وكان القدر يوشك أن يفرغ من صنع المعجزة التى غيرت وجه التاريخ والحياة . . .

وظل الشاعر فى تلك الليلة ساهراً لا يغمض له جفن ، ثائر المشاعر تموج بقلبه عوامل اليأس والرجاء . إن الظلم والظلام الذى يطبق على الوطن قد صرع الآمال وغرس أنياب اليأس فى القلوب. ولكن أما لهذا الليل الطويل الذى لف الكنانة بظلمه وظلامه من آخر ؟ أتتخطئ نواميس الوجود فلا يعقب هذا الليل الطويل فجر يذوب فى ضوئه الزاحف هذا الظلم والظلام ؟

وبات الشاعر ساهراً يتقلب على خواطر مؤرقة ، تتخللها بوارق من الآمال . . .

وكأنه كان فيما يشبه « المخاض » وهو ينظم هذه الخواطر والآمال . لقد كان فى تلك الليلة يعيش بإلهامه مع المعجزة التى تكاد تولد فى ضمير الغيب . . .

إنه يقول فى قصيدته « خواطر ثائرة » :

مضى للنوم سمار ... خلت من أنسهم دار
فما أشجى لهم لحن ... ولا قد رن مزمار
وعدت بمهجة حرّى ... وقلب ملؤه نار . . .
وحولى من سكون الليّل والأوهام أستار
وفى رأسى خيالا ... ت تموج به وأفكار
سجين ، لى من الظلما ... ت قضبان وأسوار
تعذبنى أحاسيس ... لها بالقلب أظفار
تموت لديه آمال ... وتذوى منه أزهار

ويحيا حين تبرق من — سنا الأحــلام أنوار
وبين يديه مسكوب — من الأوهــام مدرار
له لليــأس أسباب — وللتأميــل أعذار ..
ومن أعمــاق خاطره — مُنًى تطفــو وأكدار
كذلك فى ربا الوادى — يذوق المــرّ أحرار
متى رفض الهوان فتى — فليس ينــاله عار

ثم قامت الثورة . . وكان قيام الثورة فى وجدان هاشم الرفاعى انطلاقة بعيدة المدى لمشاعره ، وانتصاراً رائعاً لما يهتف به فى شعره من معان وأفكار . ولم يكن هاشم يومئذ بحاجة إلى أن يتلمس الطريق ليواكب الثورة فى انطلاقها نحو أهدافها ، لأنه كان يسير من قبل على هذا الطريق ، وكان يستشعر فى ضميره تلك الأهداف ، ويتغنى بها فى شعره ، ويرنو إليها من وراء الغيب يكاد يحدد مكانها على حاشية الأفق البعيد . . .

وحين أتم هاشم الرفاعى دراسته الثانوية فى معهد الزقازيق ، والتحق بكلية دار العلوم عام ١٩٥٦ ، كان الشاعر الشاب يجتاز أخصب مراحل حياته ، ويضع قدمه على أول مدارج القمة وهو لم يكد يتجاوز العقد الثانى من عمره !

وفى هذه المرحلة القصيرة كان الشاعر الشاب قد استكمل مقومات شاعريته ، فقد تفتحت مواهبه على آفاق واسعة واستمدت من روافد جديدة . ولهذا بهرت ألحانه القلوب والأسماع ،

وكانت التعبير الصادق عن مبادئ الثورة العربية الكبرى ، يتغنى بها ويخوض معاركها ، فى إيمان عميق يخالط دمه وقلبه ومشاعره ، لأنها مبادئ أصيلة فى تكوينه ، وفى ملكاته الموروثة والمكتسبة . ولهذا كان بحق شاعراً من شعراء القومية العربية ، يؤمن بعراقة تاريخها وبجادة تقاليدها وشرف كفاحها وسمو أهدافها .

وكانت الدولة قد عرفت للشاعر الشاب مواهبه الفنية والخلقية ، فأظلته برعايتها وزودته بكل ما ينمى هذه المواهب من أسباب التشجيع والتقدير .

وعرفت له مجامع القاهرة ودمشق أصالة مشاعره وصدق شاعريته وتفرده بهذه الخصائص النفسية والفنية ، فكان شاعراً مرموقاً فى كل ميدان ، ونجماً متألقاً فى كل مهرجان . . .

ولكن هذا الشاعر الذى جاء مع الثورة العربية الكبرى على ميعاد ، والذى أسرعت خطاه إلى القمة وهو فى مقتبل الشباب ، والذى كان خليقاً أن يأتى بالمعجزات كلما تقدمت به السن وازدادت تجاربه النفسية والفنية عمقاً واتساعاً . . . .

هذا الشاعر الذى كان طرازاً فريداً فى الشباب ، فاستحق لقب الطالب المثالى فى الجمهورية العربية المتحدة ، لأنه حقق الصورة التى يرجوها المخلصون لأبناء هذا الجيل والأجيال القادمة ؛ من سلوك سوىّ ، وإيمان قوىّ ، وعكوف على الدرس

والتحصيل ، وحفاظ على تراثنا القومى ومبادئنا الأصيلة ، واستجابة لنداء الوطن فى كل ميدان . . .

شباب كانطلاق الفجر يذكر ظلمة الأمس
ويدرك أنه بيـــديك بدد ظلمـــة اليأس
يسرك فى لظى الميدان أو فى قاعة الدرس
وإن صحت به لبى وجاد لديك بالنفس(١)

هذا الشاعر الذى كان أملا من آمال الأمة ، وآية من آيات الثورة ، وعنواناً من عناوين الجيل . . . لم تمهله يد الغدر حتى يحقق رسالته كاملة فى الحياة ، ويحقق أمل الأمة كاملا فيه ، فاغتالته يد الغدر فى ريعان شبابه وفنه وآماله ، وهو أشد ما يكون إقبالا على الحياة ، واستجابة للمشاعر الفتية والآمال الجياشة التى يهتف بها ضمير الأمة ويخفق بها قلبه المشبوب .

٤

والعجيب أنك تجد هذه المأساة عنصراً هامًّا فى حياة هاشم الرفاعى وفنه ، وتجد أنها كانت تعيش فى أعماق الشاعر منذ تفتح قلبه للحياة ، وتؤلف نغماً متميز اللون والأداء فى ألحانه .

أهو نوع من الإلهام كان يصل بين ضمير الشاعر وضمير الغيب ، فتنعكس عليه الرؤى البعيدة ، ويستشعر الحقائق

---

(١) من قصيدة الشاعر « فى عيد الوحدة » يخاطب الرئيس جمال عبد الناصر .

المحجوبة . . ذلك الذى جعل هاشم الرفاعى يكاد ينعى نفسه ، ويرثى شبابه وأحلامه ، وكأن صور الموت تلح على خاطره من خلال أفراح الحياة !

فهو فى القصيدة التى عنوانها « بسمة الحياة »

على شط من الألحان والأزهار والعطر
بروض الحب والأنغام والإخلاص والطهر

يدعو ليلاه وإلف روحه لتشاركه أفراح الحياة فيقول :

تعالى نقطع الأيام فى حلم على النهر
نرى الدنيا وقد فاضت أفانين من السحر

ولكن هذه الصورة الباسمة المتفتحة للحياة ، لا تلبث أن تغيم عليها الصورة الأخرى التى تلح دائماً على خاطره :

تعالى فالربـــا تهتز بالأفــراح والبشر
قريباً تظلم الدنيـــا وتمضى بهجة العمر !

وفى قصيدته التى يصور بها « أيام الطفولة » حيث كان يطفر مع لداته كالفراشات الجميلة بين أزاهير الحياة ، نجده يختم هذه الصور الجميلة بقوله :

هى الأيام لا تبقى عزيزاً وساعات السرور بها قليله
إذا نشر الضياء عليك نجم وأشرق ، فارتقب يوماً أفوله

وفى هذه الصورة — إلى جانب المعنى الذى ألمعنا إليه —

يتمثل مزاج الشاعر « الصوفى » ، ونظرته المحيطة إلى حقائق الكون والحياة . إن الصوفى لا ينظر إلى هذه الحقائق من جانب واحد ، ولكن نظرته تجمع بين الجوانب المتقابلة . . الحياة والموت ، الدنيا والآخرة ، الإشراق والأفول . وبهذه النظرة المحيطة يتحقق التوازن فى وجدان الصوفى ويتكون مزاجه الخاص .

وكأنما كان الشاعر يتحدث عن نفسه ، ويصور مأساته من وحى الإلهام الذى ربط بين ضميره وبين ضمير الغيب ، فهو يقول فى قصيدته « وصية لاجىء » :

أنا يا بنىّ غداً سيطوينى الغسق
لم يبق من ظل الحياة سوى رمق
وحطام قلب عاش مشبوب القلــق
قد أشرق المصباح يوماً . . واحترق
جفت به آماله حــتى اختنــق

وفى قصيدة عنوانها « زفرة » تطالعك هذه الصورة ، وكأن الشاعر ينعى فيها نفسه :

دفنت الأسى فى حنايا الفؤاد فبرّح بالقلب كتمانهُ
وصيرت همى جار الضلوع فضجّت من النار جيرانه
حزنت على أمل باسم يــكاد يهدّم بنيانه
على صادح غرد أصبحت تصاغ من الشجو ألحانه
على قبس مؤذن بالخمود وقد فاض بالنور وجدانه

وتبلغ المأساة قمتها فى ضمير الغيب ، حين ينظم الشاعر ملحمته الخالدة « رسالة فى ليلة التنفيذ » ، ليلة تنفيذ حكم الإعدام فى أحد شهداء الحرية والقومية العربية . لم يكن شهيداً واحداً .. ولكنهم كانوا كثيرين امتلأت بهم السجون وناءت بهم أعواد المشانق فى قطر عربى شقيق ، إنها ملحمة كل شهيد ، ولكنها هنا ملحمة الشاعر نفسه ، اشترك معه فى نظمها القدر ، لينشدها الشاعر بصوته من وراء الغيب .. فى الحفل الذى أقيم لتأبينه ، بعد أن لحق بمن سبقه من أولئك الشهداء !

قال الشاعر على لسان الشهيد الذى ينتظر فى غده لقاء الموت ، فى رسالة كتبها إلى أبيه ليلة التنفيذ :

أبتاه ماذا قد يخط بنانى والحبل والجلاد ينتظران!
لم تبق إلا ليلة أحيا بها وأحس أن ظلامها أكفانى

وفى هذه القصيدة تتجلى عبقرية الشاعر وعمق تجربته وصدق تعبيره ، فى صورة تعكس جوانب حياته وفلسفته فى الحياة ، إنه يصور أيام الشهيد الأخيرة فى السجن ، ويستعرض أيام كفاحه فى سبيل الحرية ومقاومة الطغاة والطغيان ، ويسجل نبضات قلبه وخلجات نفسه ، وينظر إلى الغد مصبوغاً بدمه الزكى ، فيحاول أن يعزى قلب أبيه ويأسو جراح أمه . . .

الليل من حولى هدوء قاتل والذكريات تمور فى وجدانى
والصمت يقطعه رنين سلاسل عبثت بهن أصابع السجان

ما بين آونة تمر وأختها يرنو إلىّ بمقلتى شيطان
من كوة بالباب يرقب صيده ويعود فى أمن إلى الدوران

ولكن الشاعر الذى يرى سجانه فى صورة الشيطان ، ويحس أن مكانه منه مكان الفريسة وقعت بين أنياب وحش كاسر ، قد اتسع قلبه لمشاعر أخرى طيبة نحو هذا السجان ، بل إنه ليتنكر لمشاعره الأولى التى صورت له سجانه فى تلك الصورة البغيضة ، فهو يعود فيقول :

أنا لا أحس بأى حقد نحوه ماذا جنى ؟ فتمسّه أضغانى
هو طيب الأخلاق مثلك يا أبى لم يبد فى ظمأ إلى العدوان
لكنه إن نام عنى لحظــة ذاق العيال مرارة الحرمان
فلربما ، وهو المروع سحنة ، لو كان مثلى شاعراً لرثانى
أو عاد من يدرى ؟ إلى أولاده يوماً وذكّر صورتى لبكانى

إنها مشاعر لا ينطوى عليها إلا قلب كبير ، يعرف من هو عدوه وجلاده ، ويغتفر لسجانه موقفه منه ، لأنه يؤدى واجبه فى الحدود التى فرضت عليه ، وينفذ إلى أعماقه ليرى فيها صورته الحقيقية ، صورة المواطن الطيب . . الذى يضمه مع الشاعر سجن كبير ، فلو كان شاعراً مثله لتفجرت عواطفه بالرثاء ، وهو حين يعود إلى أولاده فيطالع فيهم صورة الشهيد الذى يحتويه ظلام السجن ، يهتاج وجدانه فيجهش بالبكاء . . .

ويبلغ الشاعر أقصى مراتب الصدق حين يسجل همسات

قلبه بكل ما فيها من ضعف وقوة ويأس وأمل . إنه يصور همسات الضعف واليأس فيقول :

ويدور همس فى الجوانح : ما الذى
بالثورة الحمقاء قد أغرانى ؟ !

أولم يكن خيراً لنفسى أن أُرى
مثل الجموع أسير فى إذعان

ما ضرنى لو قد سكت ، وكلما
غلب الأسى بالغت فى الكتمان

هذا دمى سيسيل ، يجرى مطفئاً
ما ثار فى جنبىّ من نيران

وفؤادى الموار فى نبضاته
سيكف فى غده عن الخفقان

والظلم باق ، لن يحطم قيده
موتى ، ولن يودى به قربانى

ويسير ركب البغى ليس يضيره
شاة إذا اجتثت من القطعان !

ولكن الشاعر تنتفض نفسه من هذه الخواطر اليائسة التى تهمس بها الطبيعة البشرية فى لحظات ضعفها ، وتعلن نفسه

المؤمنة المكافحة عن حقيقتها ، وعن إدراكها لمعنى الحياة وفلسفة الكفاح :

هذا حديث النفس حين تشف عن
بشريتى ، وتموز بعد ثوان !

وتقول لى : إن الحياة لغاية
أسمى من التصفيق للطغيان

أنفاسك الحرى وإن هى أخمدت
ستظل تغمر أفقهم بدخان

وقروح جسمك وهو تحت سياطهم
قسمات صبح يتقيه الجانى

دمع السجين هناك فى أغلاله
ودم الشهيد هنا سيلتقيان

حتى إذا ما أفعمت بهما الربا
لم يبق غير تمرد الفيضان !

ويتجه الشاعر إلى قلب أبيه الذى سيواجه النكبة ، ويتجه إلى قلب أمه . . .

إنه يحاول أن يدخل العزاء إلى قلب أبيه ، ويعرف من أى باب يستطيع أن يبلغ من قلب أبيه ما يريد :

ليكن عزاؤك أن هذا الجبل ما | صنعته فى هذى الربوع يدان
إن ابنك المصفود فى أغلاله | قد سيق نحو الموت غير مدان
اذكر حكايات بأيام الصبا | قد قلتها لى عن هوى الأوطان!

أما حديث الشاعر إلى قلب أمه ، فقد استمعت إليه أمه الثكلى يجيء إليها من وراء الغيب . كانت تجلس فى القاعة الكبرى بجامعة القاهرة بين الألوف الذين حضروا ليشتركوا فى تأبين الشاعر الشهيد . ولم يكن هاشم بين خطباء الحفل كعادته فى كل حفل ومهرجان ، ولكنه كان صورة وذكرى . . .

وتعاقب الخطباء والشعراء يتحدثون عن الشاعر الشاب الشهيد، وعن فجيعة الأمة فيه ، وعن المستقبل الذى كان يدخر لهذا الشاعر الشاب مكاناً فى الصدر بين فحول الشعراء الذين يجلسون على قمة التاريخ .

قال السيد كمال الدين حسين : لم أصدق عينى أول الأمر عند ما قرأت نعى هاشم الرفاعى وأنا فى غيبة عن الوطن . . فقد كان عهدى به غير بعيد يوم وقف فى دمشق بين آلاف الشيوخ والشباب والأمهات والبنات ، تتدفق حماستهم وتهدر وهو ينشدهم شعره وينفث أناته وزفراته حمماً من لهب وشواظاً من نار . . . ،

وقال السيد يوسف السباعى : لقد سمعته ينشد شعره مرة واحدة ، فأخذت به وأحسست أن الله منحنا به موهبة فذة ، ولم

أشك فى أن صوته سيرتفع بيننا فى كل حفل . ولكن القدر أبى إلا أن يكون هو نفسه موضوع الحديث فى هذا الحفل ، وأبى علينا إلا أن نسمع عنه ولا نسمعه ، وألا يعلو بيننا صوته إلا صدى ذكريات . .

وقال الأستاذ على الجندى عميد كلية دار العلوم السابق :

أطول الفخر أن تحوز الذى حزت من الفخر فى الزمان القصير
نلت ما نال حافظ وخليل بل وأدركت حظ شوقى الأمير
كرموهم وكرموك وفخـــر أن يحوز الصغير شأو الكبير

وكان الأستاذ على الجندى يقول[1] : لو عاش هاشم الرفاعى إلى سن الثلاثين ، لغطى على جميع شعراء العربية فى العصر الحاضر !

وقال الأستاذ زكى المهندس عميد كلية دار العلوم الأسبق[2] : لو قدر لهاشم الرفاعى البقاء ، لكان أشعر أهل زمانه . . .

وكانت أم الشهيد تصغى إلى كلمات الخطباء وقصائد الشعراء ، وكأنما بعثت المأساة فى وجدانها بكل صورها الدامية ولهيبها المشبوب . وكان يزيد فى حزنها ولوعتها أن يخلو الميدان من

---

(١) فى حديث خاص .

(٢) جريدة المساء فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٥٩ .

فارسه المعلم ، وأن يقفر الروض من بلبله الصداح .

ولكن القدر كان قد أعد لهذا الحفل مفاجأة مثيرة . . .

فقد انتهى الخطباء والشعراء من إلقاء كلماتهم وقصائدهم ، وأخذ كل منهم مكانه على المنصة فى صمت وخشوع ، وظل جهاز الإلقاء قائماً لا يتقدم إليه أحد ، ولكن الجميع ينظرون إليه وينتظرون . . .

ومرت لحظات طافت فيها بخيال الحاضرين صور كثيرة ، وثارت فى وجدانهم انفعالات شتى . ولو نطقت هذه الصور والانفعالات لقالت : أين شاعر الحفل . . أين نجم المهرجان ؟

وكان القدر قد أعد الرد على هذا السؤال الذى لم تنطق به الشفاه ، ولكنه كان صورة تطوف بالخيال ، وانفعالا يثور فى الوجدان . . .

وكانت المفاجأة التى أعدها القدر . . .

صوت من وراء الغيب يتردد صداه فى قاعة الاحتفال ، لشاعر مشبوب العاطفة قوى النبرات . . إنه صوت الشاعر الغائب عاد يدوى فى الأسماع والقلوب ، ليكون — كالعهد به — شاعر الحفل ونجم المهرجان !

إنه صوت هاشم الرفاعى . . .

وجمدت الدموع فى عينى أم الشهيد ، وتألق فيهما بريق الدهشة والفرحة الحائرة ، وكادت تهب من مكانها وتفتح ذراعيها لتحتضن الصوت الحبيب . . .

أبتاه ماذا قــد يخط بنانى والحبل والجلاد ينتظران ؟ !

. . . .

إنها ملحمة الشهيد « فى ليلة التنفيذ » !

الملحمة التى اشترك فى نظمها الشاعر والقدر ، لينشدها الشاعر مرة أخرى بصوته من وراء الغيب ، فى الحفل الذى أقيم لتأبينه ، بعد أن لحق بمن سبقه من الشهداء . . .

وعادت صور المأساة تتتابع فى وجدان أم الشهيد مع ألحان الملحمة التى ينشدها بصوته من وراء الغيب . واستمعت إلى رسالته التى وجهها إلى أبيه « ليلة التنفيذ » :

. . . .

وإذا سمعت نشيد أمى فى الدجى تبكى شباباً ضاع فى الريعان
وتكتم الحسرات فى أعماقهــا ألمــاً تواريه عن الجيران
فاطلب إليها الصفح عنى ، إننى لا أبتغى منها سوى الغفران !

وهنا ترفع أم الشهيد نظراتها ويديها إلى السماء فى صلاة عميقة وقد أشرق وجهها بالضراعة والدعاء . . .

وتفيق أم الشهيد على صوت الشاعر ينبعث من أعماقها لا من جهاز التسجيل. إنه يذكرها أمنية عزيزة طالما ألحت بها عليه :

ما زال فى سمعى رنين حديثها ومقالها فى رحمة وحنان . . .
أبنىّ : إنى قد غدوت عليلة لم يبق لى جلد على الأحزان
فأذق فؤادى فرحة بالبحث عن بنت الحلال ودعك من عصيانى
كانت لها أمنيّةٌ ريانــة يا حسن آمال لها وأمانى
غزلت خيوط السعد مخضلاً ولم يكن انتقاض الغزل فى الحسبان
والآن لا أدرى بأى جوانــح ستبيت بعدى أم بأى جنان !

وعادت الدموع التى جمدت فى عينى أم الشـــهيد تنهمر على خديها ، وعاد وجيب قلبها المفئود يختلط بزفراتها الحارة ونشيجها المكتوم . . .

وانفجرت على مقربة منها فتاة متشحة بالسواد تبكى فى حرقة طاغية . إنها الفتاة التى اختارها الشاعر الشهيد لتكون رفيقة حياته . إنها « بنت الحلال » التى كانت تتمناها أم الشهيد ... تمثلت فيها صورة الزوجة الكاملة كما يتصورها الشاعر بمقاييسه الخاصة ، فهفا إليها قلبه وتعلقت بها آماله .

كتبت إليه « بنت الحلال » ذات مرة تهنئه بفوزه بجائزة الشعر فى مسابقة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، فكتب إليها ــ شاكراً ــ هذه الأبيات :

شكرى إليك يسوقه قلبى ولا يجدى لسانى فيه يا فريال
لى أمنيات كان فوزى واحداً منها ، فهل تتحقق الآمال؟

ولكن يد الغدر عاجلت الشاعر الشاب فأجهزت على هذه الآمال ، كما أجهزت على آماله الكبيرة الأخرى فى الحياة ، وعلى آمال الأمة العربية فى فتى من فتيانها وشاعر من شعرائها الكبار .

٥

وتستطيع أن تستقصى أسباب الجريمة التى أطلقت يد الغدر فأودت بحياة الشاعر الشهيد ، فى الصور الوجدانية التى أودعها الشاعر أحزان قلبه وزفرات فؤاده وتجاربه المريرة مع الحياة والناس ، وفى بعض ما نظم — على قلته — من قصائد الهجاء .

إن فى هذه الصور الوجدانية وفى بعض قصائد الهجاء ، الخطوط الأولى التى تحدد بواعث الجريمة ، والملامح النفسية لسر هذه المأساة . وأول هذه الخطوط والملامح ، أن هاشم الرفاعى كان كثير الأعداء . . .

إن التزامه سلوكاً معيناً فى الحياة يقوم على الجد والترفع عن الصغائر والاعتزاز بالنفس ، وما كان يتميز به الشاعر بين أترابه فى المدرسة وفى المعهد وفى الجامعة ، من نبوغ مبكر ومواهب كبيرة فتحت أمامه أبواب المجد والخلود . والمعارك التى خاضها

الشاعر تحت لواء القومية العربية ، انتصاراً لقوميته ودينه ولغته وتقاليد أمته . .

كل هذه الصفات والمواهب والمواقف التى تتألف منها شخصية هاشم الرفاعى ، خلقت حوله كثيراً من الأعداء . . بعضهم كان ينقم منه استقامة خلقه ، وترفّعه عن مباذل الشباب ، وتصوّنه من كل عاب ، لأن ذلك يشعرهم هوان ما هم فيه ، ويدمغ جباههم بالذل والعار . . .

ومنهم من كان يحقد على هاشم الرفاعى لتفوقه ونباهة ذكره. ولو أنصفوا أنفسهم وأنصفوه لعرفوا أنه لم يبلغ مبلغه ذاك إلا بعد أن أدى ثمنه الغالى ، وأنهم كانوا يستطيعون أن يبلغوا مبلغه ، أو أدنى من ذلك أو أكبر ، لو التزموا المنهج وساروا على الطريق . .

ومنهم من كان يأكل الحقد قلبه ، وتضطرم نار الانتقام فى نفسه ، لأن هاشم الرفاعى صار شاعراً مرموقاً من شعراء القومية العربية ، ولأنه كان فى شاعريته آية للأحرار ، وسوط عذاب على الصنائع والعملاء . .

ومن هؤلاء الأعداء من كان ينقم على هاشم الرفاعى ، ويضطرم قلبه بنار الحقد والانتقام ، لهذه الأسباب مجتمعة . . على مقدار ما بينه وبين هاشم الرفاعى من تباين فى مقومات

الشخصية ، واختلاف فى الوسائل والغايات . ومن هذا الفريق الأخير كان « لؤلؤة » ! !

يقول الشاعر الشهيد فى قصيدة بعنوان « مساكنكم يأيها النمل » :

إلى ذروة العلياء سار بى الفعل ومثلى للعلياء بين الورى أهل
سموت بجدى وارتقت بى فضائلى وليس أخو جد كمن طبعه الهزل

وبعد أن يعدد الشاعر صوراً من خلائقه التى أبلغته مراتب التقدير والتكريم ، يعود فيقول :

ولكن قوماً — لا عفا الله عنهم — يرون ذنوبى أن يدين بى النبل
وما حيلتى فيهم ، وذنبى لديهمو مقامى حميداً حيث لا ينزل الذل
وإنى وقد أنضجت غيظاً قلوبهم على حين لم يسمع لدى لهم قول
لئن شئت عاشوا فى ثياب مذلة ولكن لى عنهم بنيل العلا شغل

ويصف هؤلاء الحاقدين الذين أنضج قلوبهم غيظاً فيقول :

إذا رمت أن تسقى من الود عندهم
فكن مثلهم فى الناس شيمتك الجهل
وإن كنت تبغى العيش فى ظل حبهم
فلا يصطفيك العمرَ من دونهم فضل
أولو حسد قد ساءهم ما بلغته
فحقدهم وار وفى صدرهم غسل

يريدون بين النــاس ذكراً ورفعة
وظنوا بأن المجــد إدراكه سهــل

ودون بلوغ المجــد عزم وفطنــة
وما لهمُ فى ذاك باع ولا حــول

ويختتم الشاعر قصيدته موجهاً حديثه ووعيده إلى أولئك الحاقدين :

فيأيها القوم الذين بلوتهــم
فأغرقنى من خبث أخلاقهم سيل

لقد جاءكم منى سليمان فادخلوا
مساكنكم فى الأرض يأيها النمل !

إنها صورة واضحة الملامح قوية التعبير عن بواعث المأساة . وإذا كان هاشم الرفاعى قد طغى عليه الشعور بقرب نهاية حياته ، وكانت هذه الصورة تنعكس فى كثير من شعره ، فما أظنه كان يتوقع أن تنتهى حياته على هذه الصورة الغادرة — على سوء رأيه فى أولئك الحاقدين — إنه اعتاد أن يخوض معاركه بشجاعة وشرف ، وحين يرى من قوم خيانة كان ينبذ إليهم على سواء .

لقد جاءكم منى سليمان فادخلوا
مساكنكم فى الأرض يأيها النمل

ولكن أعداءه كانوا غير ذلك . فاختاروا للمعركة ميداناً غير ميدانها ، واستخدموا غير أسلحتها . إنهم لم يستطيعوا أن يواجهوه رأياً برأى ، أو يغالبوه « بالعزم والفطنة » ، أو يلتقوا معه أعداء شرفاء — ولكنهم أظهروا له الود ، وأعلنوا الندم على ما فرط منهم فى حقه ، وبسطوا إليه أيديهم يطلبون الصفح ويوثقون العهد . . واستدرجوه إلى « النادى » فى وقت خلا فيه من سماره ، وهنالك انكشف القناع عن أنياب الخيانة والغدر ، وامتدت اليد الآثمة تسدد إلى قلب الشاعر طعنات قاتلة . . .

ولم يمت هاشم الرفاعى ، ولم تمت كذلك أحقاد أعدائه !

فقد كان استشهاد الشاعر على أيدى هؤلاء الجناة ، شهادة فى سبيل الحق والمثل الرفيعة والمبادئ القويمة ، كتبت للشهيد حياة خالدة ، إن تكن قد انطوت منها بموته صفحات ، فقد بدأت صفحات أخرى متجددة على تعاقب العصور والأجيال ، تروى للشباب ملحمة هذا الشاعر الشهيد .

ولم يطفىء الدم الزكى الذى تفجر من قلب الشاعر الشهيد، نيران الحقد والانتقام التى كانت تضطرم بها قلوب أعدائه ، بل زادها الدم المهراق حرقة وضراماً ، لأن أملهم فى أن يخفت الصوت الهادر وتنطفئ الجذوة المشتعلة قد خاب ، فهم من نار الحقد ونار الخيبة فى جحيم دائم وعذاب مقيم . . .

٦

ولقد كان هاشم الرفاعى طرازاً قليل النظراء بين الشعراء . كان شعره تعبيراً صادقاً عن حياته ، وكانت حياته تعبيراً صادقاً عن مبادئه ، وكانت هذه المبادىء دستوراً فى السلوك الفردى القويم ، ومنهجاً فى التربية الاجتماعية والرسالة القومية .

قد يكون بين الشعراء من يجيد — مثلا — شعر الحماسة ، وإنه ليثير بشعره الحمية والشجاعة حتى فى قلوب الجبناء ، فإذا واجه عدواً أو خاض معركة كان قلبه فى جناحى طائر ، وولى على عقبيه يؤثر الفرار . . والعار !

هذا حسان بن ثابت الذى يقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما !

والذى كان شعره « أشد على الكفار من وقع الحسام فى غبش الظلام » ، ماذا كان موقفه فى غزوة الخندق ؟

لقد كانت مهمته — فحسب — أن يحرس حصناً أوت إليه النساء والأطفال . وتسلل رجل من العدو إلى الحصن فاستنفرت النساء الحارس اليقظ لمواجهته . ولكن الحارس كان يجيد الدفاع والهجوم بشعره لا بسلاحه ، وشعره لا يجدى فتيلا فى هذا المقام. وحملت عبء الدفاع عن الحصن ومواجهة العدو . . امرأة !

إنها صفية بنت عبد المطلب ، عمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — حملت قضيباً وأهوت به على رأس العدو فقتلته ، ثم قالت لحسان :

قم إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل ...

قال حسان : مالى يا ابنة عبد المطلب بسلبه من حاجة ! !

وقد يكون بين الشعراء من يبلغ الذروة فى فنه ، ولكنه يفتقر إلى الإيمان بما يقول ، لأنه يستمد بواعث شعره من الظروف التى تحيط به ، وقد تختلف هذه البواعث من حال إلى حال ، حتى تبلغ فى اختلافها مبلغ التناقض العجيب ، مثل تناقض المتنبى فى موقفه من كافور . . .

وقد يكون من الشعراء من يعبر شعره تعبيراً صادقاً عن خصائص نفسه وسلوكه فى الحياة . ولكن ميزة الصدق فى كفة « الفن » تقابلها المعرّة فى كفة « الالتزام » إذا كانت الخصائص النفسية للشاعر وسلوكه فى الحياة يقومان على الأنانية أو الانحراف أو غير ذلك من المثالب والعيوب . وهنا يتحول معنى الصدق فى التعبير إلى معنى آخر قد يكون الوقاحة أو الفجور !

ومن الشعراء من تكون هذه خصائصه النفسية ، وذلك سلوكه فى الحياة ، ولكنه فى شعره صورة أخرى . . ينتحل فيها المعانى الكريمة ويوقع ألحان العزة والشرف ، ولا يجد حرجاً فى أن يكون ذا وجهين كل منهما على نقيض الآخر . .

وهنا تبرز قضية كبرى ، هى شخصية الفنان فى حياته الخاصة والعامة ، وفى صلة مبادئه وسلوكه بما ينتج من فن .

هل للفنان شخصية واحدة ، هى قوام سلوكه وفنه . أم أن

للفنان شخصية مزدوجة . . فسلوكه شيء وفنه شيء آخر ؟

وهنا أيضاً تبرز مغالطة كبرى . . .

تلك التي تقول إن للفنان حياته الخاصة ، يتصرف فيها كما يشاء ، وفقاً لأهوائه ونزواته . فإذا أنتج فنه وجاء هذا الفن فى صورة أخرى مغايرة كل المغايرة لطبيعة الفنان وحياته الخاصة بما فيها من نزوات وأهواء ، لم يكن فى ذلك أية غرابة أو مجافاة للمنطق ولطبيعة الفن والحياة !

والحقيقة الأولى التى تصدع هذه المغالطة الكبرى ، هى أن الفن تعبير عن الحياة ، وأن أهم مقومات الفن هو الصدق فى التعبير . وعلى قدر نصيب التعبير من الصدق تكون قيمة الفن وحظه من العمق والأصالة . فليكن الفنان ما شاء فى مبادئه وسلوكه ، ولكن حين يجيء فنه صورة أخرى لا تحمل ملامح نفسه وخطوط مسلكه فى الحياة ، فذلك برهان كذبه وخداعه ، ودليل على زيف فنه ، مهما برع فى « الصناعة » وأجاد التمثيل .

« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » !

حقيقة خالدة ، اهتدى إليها العلم فى أحدث ما وصل إليه

من كشوف فى عالم النفس ، تتبدد فى ضوئها خرافة ازدواج الشخصية . . .

* * *

تلك أنماط مختلفة من الشعراء ، وصور من مقومات شخصياتهم وعناصر فنهم ، ونماذج من قضايا الفن والحياة .

فأين مكان هاشم الرفاعى من هؤلاء الشعراء ، وأين مكان فنه ؟

إن هاشم الرفاعى طراز آخر قليل النظراء فى ميدانه ، لأنه جمع فى شخصيته من العناصر والمقومات ما يندر أن تجمعه شخصية شاعر آخر ، ولأنه كان يمتاز بالاتساق العجيب بين أبعاده النفسية والسلوكية والفنية ، وبالتآلف الكامل بين هذه العناصر التى تقوم عليها حياته وفنه . ولهذا جاءت شخصيته سوية لا تناقض فيها ولا اضطراب ، قوية واضحة لا اهتزاز فيها ولا غموض .

ولنعرض قطاعاً معيناً من حياة الشاعر وفنه ، ذلك هو القطاع العاطفى الذى يربطه بالمرأة . فماذا كانت مشاعره وآراؤه ومسلكه فى هذا القطاع ؟

إن نشأة الشاعر فى بيئة ريفية دينية ، تلتزم التقاليد العفة فى علاقة المرأة بالمجتمع ، وفى تحديد الإطار الذى تعيش فيه ، قد طبعت وجدان الشاعر وفكره بهذه التقاليد ، فهو فى مناعة

من دينه وخلقه ، وهو مؤمن بفضائل المرأة فى مجتمعه هذا الذى لم تصل إليه موجات الاستعمار الانحلالية التى غزا بها بعض المجتمعات فى المدن الكبرى . . .

ومعركة المرأة كانت إحدى المعارك التى خاضها الاستعمار لإذابة مقومات المجتمع العربى ، وحشد لها كل أسلحته بالفيلم والصورة والكلمة والنغم وأنماط الأزياء ، وأسواق الرقيق الأبيض على الشواطىء وفى بعض حفلات البر . وقد استطاع الاستعمار أن ينتصر فى هذه المعركة ، ولكن انتصاره كان محصوراً فى بيئات خاصة هى التى انحلت فيها عرى الدين والتقاليد العربية الأصيلة ، وظلت البيئات الأخرى فى المدن وفى الريف عامة ممتنعة على هذه الغزوات ، تعيش المرأة فيها على تقاليد عفة كريمة .

كم فى القرى من غـــادة   حسناء كالرشـــأ الغرير
النائمـــات لدى العشى   القائمـــات لدى الـــبكور
الحافظـــات عـــلى الليالى   قدس عهد للعشـــير
السافـــرات وفى شمائلهن   حصن للسفـــور
وبرزن فى أخلاقهـــن   حيـــاء ربـــات الخدور

وفى ظلال تلك التقاليد العفة الكريمة ، يكون الحب معصوماً من الزلل ، لا تلحقه ريبة أو سوء ظن . وفى ذلك يخاطب الشاعر محبوبته قائلا :

يا بنت ذا الريف الجميل لقد مضى
عهد ونحن على البعـــاد القائم
قسماً بمشبوب الغـــرام وإنـــه
للظى تأجج فى الفـــؤاد الهـــائم
لم أخش يوماً فى هـــواك وشايـــة
أو خفت فى لقياك لومة لائم
بنت الطبيعة إن أحب فـــؤادها
تلق الحبيب عـــلى عفاف سالم

وحين يهبط الشاعر العاصمة ويلتحق بالجامعة ، تفجؤه صورة أخرى فى مجتمعه الجديد ، صورة بعض الفتيات وقد أسرفن على أنفسهن وعلى الشباب حيث يجمل القصد . فلا تستهويه الصورة المثيرة كبعض الشباب الذين جرفهم التيار . . ولكنه يقول لإحداهن من قصيدة بعنوان « رماد الفضيلة » .

لا تمدى لصيـــده أحبولـــه
من تـــثنٍّ ومقلة مكحولـــه
إنه ها هنـــا أخ وزميـــل
أنت أخت له وأنت زميـــله
نحن فى منهـــل العلوم ولسنا
فى مباراة فتنـــة مصقوله

فعـــلام الشفاه ترمى بنـــار
خلّفت تحتّها رماد الفضيله
إن هـــذا الذى نرى رقصات
فوق قبر الـــكرامة المقتـــوله
فإذا شئت أن ترينـــا جمالا
حسبك النفس حين تبدو جميله

ويبدو أن الشاعر تعرض لتجربة من هذا النوع فى أواخر أيامه ، صورها فى قصيدة بعنوان « العابثة بالحب » فقال :

قالت العين لى : أجل ثم أطرقت فى خجل
أنت أحببتـــنى ولم أدع الحب يكتمل
أنت تلهـــين بالهوى ومن اللهو ما قتـــل
كم تساءلت ما الذى يمنع المرء لو فعل
أنفق الوقت هانئاً بشبـــابى على مهل
ساخراً من قيودنـــا والرقيب الذى غفـــل
ثم أنسلّ عائـــدا لا أبالى الذى حصل

إنه يصور بذلك منطق بعض الشباب الذين يتخذون من « الحب » مطية للعبث والانغماس فى العلاقات الآثمة ، فإذا قضى أحدهم وطره . . انسل عائداً لا يبالى الذى حصل !

أما الشاعر فليس من هذا الطراز من الشباب . إنه يقول لفتاته العابثة بالحب :

ذاك مـــا يستطيعـــه كل من يبتغى الزلل
فدعيـــنى فإننـــا إن بدأنا فلن نصل
رب شخص سواى لو مسح الجرح لاندمل

ذلك أن الشاعر لا يعرف « الحب » وسيلة للعبث والسقوط ، ولكنه يرى الحب عاطفة قدسية سامية . وأسمى مراتب الحب عنده هو الحب العذرى ، تدل على ذلك مسرحيته التى نظمها وهو فى العشرين من عمره عن شهيد بنى عذرة : عروة بن حزام . . .

إن اهتمامه بحياة هذا الشاعر العذرى الشهيد ، وتصوير قصة حبه واستشهاده فى هذه المسرحية ، ليس إلا انعكاساً لمذهبه فى الحب ، وتجاوباً فى المشاعر بينه وبين شهيد بنى عذرة . وقد هيأ له ذلك أن يبلغ فى مسرحيته هذه — وهى محاولته الأولى فى هذا الفن — مستوى عالياً فى صدق التعبير وروعة البناء وبراعة الحركة ، لا يقل عن مستوى كثير من أعلام المسرحية الشعرية فى الأدب العربى .

إن الشاعر العف الذى يستهويه الهوى العذرى ، يقول على لسان « سعاد » إحدى شخوص مسرحيته :

بنو عذرة الطاهرون الأباة كرام الشيوخ نقاة الشباب
إذا عشقوا كان عشق التقاة وقام من الطهر فيهم حجاب
يموتون حبـًّا لأن العفاف لهم فى الصبابة طبع وداب

الطهارة ، والإباء ، والكرم ، والنقاء ، والتقى ، والطهر ، والعفاف . . . هى عناصر الحب عند بنى عذرة ، وعند شاعرنا الشاب الشهيد !

والحب عنده ليس عاطفة ضالة منهومة متقممة ، تقود صاحبها على غير هدى ، وتنتهب اللذة الآثمة من هنا وهناك . ولكن الحب عاطفة قدسية تعرف معارجها إلى هدف كبير ، يلتقى عنده قلبان وتمتزج روحان . استمع إلى الشاعر وهو يقول على لسان عروة :

تحملت يا عفراء حبا كأنه ... بقلبى على مر الزمان لهيب
فؤادى فؤاد ملؤه البثّ والضنى ... يكاد من الوجد الشديد يذوب
فلا هو عن حب ابنة العم مقصر ... ولا جرحه فيما يطيب يطيب
وما زال مذ نحيت عنى تمائمى ... إلى اليوم يعروه لديك وجيب
وماذا يفيد القرب إن لم يكن لنا ... من القرب فى ظل الزواج نصيب !

أجل . ما الهوى ، وما الحب ، وماذا يفيد القرب . . إذا لم يكن ذلك فى ظل الرباط المقدس ؟ !

وللشاعر عدة قصائد فى الغزل ، وهو فى طابعه العام غزل عف تتمثل فيه عبادة الجمال ، على أن بعض هذا الغزل تختلف صوره عن طبيعة الشاعر الملتزم ، مثل قوله فى مقطوعة بعنوان « فاتنة » :

بسمة الوجه فى دجى الشعر تحكى ... ومضة الفجر فى ظلام الليالى

ذلك الثغر باهتصارك يغرى ذلك الصدر ملهب للخيال
فى قوام متى احتواه ذراعى وأطل الردى فلست أبالى !

ومثل قوله فى وصف « راقصة » :

وجسم كطيف النور ينضح فتنة مشت فيه نيران الصبا فتلهّبا
عليه من الوشى الرقيق غلالة أبانت لنا السحر الخفى المحجبا
وإن أنس لا أنساك ليلة جئتنا يزينك بردان : الملاحة والصبا
وطافت بك الأنغام سكرى تأوّدت فهزت لنا ردفاً ونهداً مدربا
وملتِ فمال الكون بى وإخالنى خرجت من الإعياء أرجو المطببا

هذه الصور التى تبدو معربدة متمردة على خلق الشاعر ، وطبيعته العفة الجادة ، ليست إلا لوناً من ألوان التنفيس عما يكابد الشاعر من كبت وحرمان ، والتعويض بالصورة والخيال عما يتحرج أن يمارسه فى واقع الحياة .

على أن الشاعر يكشف عن حقيقة ليست خافية كل الخفاء ، وهى أن الغزل فى شعره لا يصور فى جميع حالاته تجارب خاصة ، فهو قد يجىء فى شعره على طريقة المتصوفة حين يرمزون به إلى معان أسمى من معانيه الظاهرة . وقد يبدأ الشاعر بعض قصائده بالغزل على الطريقة التقليدية ، ثم يخلص من الغزل إلى أغراض القصيدة الأخرى . وإذا كان بعض غزله لم يتوافر له عنصر الصدق فى التعبير عن طبيعته ، فإن الشاعر كان صادقاً كل الصدق حين قال فى مقطوعة له بعنوان « كبرياء الحب » :

المنى ملء قلبه لا الصبابه وهب المجد روحه وشبابه
شاعر يقطع الحياة انطلاقاً والطموح الوثاب يحدو ركابه
يخدع الناس إن تغزل يوماً مبدعاً صورة الهوى وعذابه
فتخالونه سقيماً معنّى شفه الحب طاغياً وأذابه
وهو لم يسلم العنان لأنثى ذات سحر تريه معنى الكآبه
نفسه حرة ، بها كبرياء تعصم القلب أن يضيع صوابه

٧

ومحاولة الشاعر التنفيس عما يكابده من التزام الجد فى كل أمره ، وفطام نفسه عن لذاذات الشباب ، اتخذت مسارب أخرى غير التعبير بالصورة المعربدة والخيال المتمرد . وذلك عن طريق الزجل والشعر العامى ، والشعر الفكاهى الذى يجمع بين العامية والفصحى .

إنه فى هذه الفنون يتخفف من أعبائه النفسية وقيوده الفنية ، فينطلق يداعب ويسخر ويهجو . . فى صور لاذعة أحياناً ، تكاد تقهقه أحياناً أخرى . وهو فى ذلك يبلغ غاية بعيدة من الإبداع الفنى . فلو لم يكن اشتهاره بالشعر لكان من أعلام فن الزجل .

وهو فى هذه الفنون الترويحية التى يتخفف فيها من أعبائه النفسية وقيوده الفنية ، لا تزايله مثله ومبادئه وأهدافه . ولهذا كانت أزجاله وأشعاره العامية صورة من شعره الفصيح بكل

خصائصه الموضوعية ، وكان الاختلاف فقط فى الشكل والإطار . . .

استمع إليه فى زجل عنوانه « حامى الاستعمار » يقول لمستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وقتئذ :

كل الشعوب تلعنك يا حامى الاستعمار
يا باغى ع الحق دايماً بالحديد والنار
اسمك صبح من تاريخه للنداله شعار
بكره الزمن راح يسجل فى صحايفه السود
أفعالك اللى ح تنطق بالهوان والعار

* * *

كان فين « إرسكين » بتاعكم قاتل الأطفال
وانتم ف « دنكرك» شايفين العذاب أشكال
وقفت تخطب نهارها وتشكى سوء الحال
وتقول معنديش خلاف الدمع دلوقتى
داهية تسم البعيد الخاين البطـــال

فى هذه الصورة ثورة على الاستعمار وتنديد بجرائمه المنكرة وصحائفه السود ، وكان « إرسكين » قائد القوات البريطانية فى منطقة القناة ، قد فقد صوابه فراح يصب نقمته على المواطنين العزل ، ينسف الدور ، ويقتل الشيوخ والنساء والأطفال ، فنظم الشاعر هذا الزجل موجهاً حديثه إلى تشرشل « حامى

الاستعمار » يلعنه ويعيره بموقف الهزيمة والذل والعار فى « دنكرك » ويمن عليه بحماية الشعب العربى فى مصر لقواته المنهزمة أمام قوات « روميل » حتى تحولت معركة العلمين بعد الهزيمة إلى انتصار :

أشهد لك انك يا مستر فى السفاله زعيم
خاين لأنك بتتنكر لشعب كريم

فضله عليك قبل غيرك يا خواجه عميم
وان كنت ناسى جنابك زنقة « العلمين »
يفكرك «مونتجمرى» اللى بيومها عليم

وهو فى قصيده فكاهية عنوانها « مشى الهلافيت » يقدم نموذجاً للرجل أدركه الشيب وما زال سادراً فى غيه ، فى صورة ساخرة ونقد لاذع فيقول :

لا بالملام ولا بالنصح تنتفع ... متى أراك عن التهليس تمتنع ؟
رأيت ذقنك مثل الصوف شايبة ... ولست عن سيرك البطال تنقطع
عار عليك إذا أصبحت منحنياً ... وفيك كل صنوف الهلس .. والبدع
فكم سهرت بكازينو تبعزق فى ... مصروف بيتك والأولاد ماشبعوا
إذا رأيت «لماليبو» لك ابتسمت ... تطب فى حبها كالعجل إذ يقع
لك انبساط وتهييص وفرفشة ... وللولية هم القلب والوجع

وتجد الملامح النفسية والفنية للشاعر فى أزجاله ، هى ملامحه ذاتها فى شعره الفصيح . فهو يقول على لسان عروة بن حزام :

ليالينا عند الخميسلة عودى
فقد أذبل الهجران ناضر عودى
جرى الدهر بالتفريق بينى وبينها
وآلمنـا بالنحس بعد سعود
وكان حميداً فعله فإذا به
وليس على هذا الأسى بحميد
فصوّح أزهارى وكانت ندية
ومات على ثغرى الغداة نشيدى

وهذه الصورة بملامحها النفسية والفنية تجدها فى أغنية عامية للشاعر عنوانها « أيام هواك » إذ يقول :

أيام هواك كانت أحلام   يا ريتها طالت أحلامه
دامت لمين فى الهوى أيام   لما تدوم لنـا أيامه !

* * *

ياما ليالى علينـا كتير   فاتت وكنت قريب منى
تشكى الهوى من قلب أسير   ودموعى تشكى لك عنى
راحت وراح أملى فيهـا
ما بقيتش يوم افرح بيهـا
ماتت على عودى الأنغـام   وياما رنّت أنغـامه
دامت لمين فى الهوى أيام   لمـا تدوم لنا أيامه !

٨

وتمضى الخطوط النفسية فى حياة الشاعر واضحة المعالم مستقيمة الاتجاه ، معروفة البداية والنهاية . يتمثل ذلك فى جميع صوره الشعرية ، فهو الشاب الذى عرفنا سلوكه العف ومنهجه الجاد فى الحياة . وقد كان إحساسه بمعنى الوطنية والاستجابة لداعى الكفاح جد مبكر فى حياته ، إنه يقول وهو فى الرابعة عشرة من عمره تحت عنوان « عقيدة » :

حب البلاد عقيدة أشربتها من ثدى أمى حين كنت رضيعا
فإذا دعتنى للكفاح عقيدتى لبيت داعيها الكريم سريعا

وفى هذه السن المبكرة جدًّا بدأت ثورته على « الطاغية » ومفاسد عهده ، فقد قال فى هذه القصيدة نفسها ويرجع تاريخها إلى يوليو عام ١٩٤٩ – والطاغية فى عنفوان طغيانه :

يا فتية النيل الممجّد إننـــا نأبى ونرفض أن نساق قطيعا
هذا ابن «نازلى» للهلاك يقودنا جهراً ويلقى فى البلاد مطيعا
فإلى متى هذا الخنوع وإنه جرم أضاع حقوق مصر جميعا

وفى الفترة التى سبقت قيام الثورة ببضعة أشهر ، اشتدت وطأة الفدائيين على معسكرات الاحتلال البريطانى ، فعملت الحكومة القائمة وقتئذ على شل حركة الفدائيين ، وقبلت الدخول فى مفاوضات مع الغاصب المحتل . فنظم الشاعر قصيدة بعنوان « جهاد ضائع » استهلها بقوله :

سئم الفؤاد الزور والتضليلا ... لا نرتضى غير الجهاد سبيلا
قالوا : مفاوضة . فقلت لهم متى ... أجدت مفاوضة اللئام فتيلا؟

ثم يتحدث عن أولئك الفدائيين الأحرار الذين زلزلوا قواعد المستعمر وأرقوا أجفانه فيقول :

هم فتية بذلوا النفوس رخيصة ... يبغون مجداً للبلاد أثيلا
هتفوا لمصر غير أن هتافهم ... كان الجهاد عشية وأصيلا

وبعد أن يعدد جرائم المستعمر ويحرض على القصاص منه يقول :

السيف مفتاح الطريق إلى العلا ... تعس الذى يبغى سواه بديلا
خلّوا سبيل القائمين بحمله ... فسيطردون من البلاد دخيلا

وإنك لتجد إيمان الشاعر بأن الحق يجب أن تؤيده القوة ، واضحاً فى مواضع كثيرة من شعره ، فهو يقول :

* والحق إن صنته بالرمح تسمعه
كل الشعوب وتصحو عين غافيها

* وإذا الضلال طغى على صوت الهدى
فالسيف بعض وسائل الإقناع

* دع السيف يبدى الحق لو كان خافياً
فما مثله إن شئت فى الحق قاضيا
وخضّبه لا ترحم عدواً فإنه
لورد دم الأعداء قد بات صاديا

أضرّ بــه طول الأوام ، فروّه
إلى أن يرى فى الكف أحمر قانيـــا

أرانا إذا لم نطلب الحق بالظــبى
فلسنا عـلى الأيام نلقى الأمانيـــا

وفى هذا الاتجاه نفسه الذى تسير فيه حياة الشاعر ، تطالعنا صورة الفتى المؤمن بدينه وتاريخه ، إنه يخاطب بعض الشباب الذين لفهم ضباب الحيرة ، وتجاذبتهم مختلف الصيحات ، وكاد ينقطع ما بينهم وبين حقائق دينهم وأمجاد تاريخهم من أسباب فيقول :

أيها السائر بــين الغيهب
عاثر الخطو جلىّ التعب

ضارباً فى لجـــة غامضة
من محيط العالم المضطرب

لا تقف حيران مشبوب الأسى
هكذا ، نهباً لشتى الريب

ذلك الدرب سلـــكناه معاً
من قديم ، لست بالمغترب

أنت فى الدنيا نمـــاءٌ هاتل
مشرق الماضى عريق النسب

أنت لا تعرف من أنت ولم
تقرأ التاريخ يا ابن العرب

تلمس العلة تشكو بأسها
ثم لا تدرى لها من سبب

أنا أنبيك عن الداء وعن
طبه المهجور ملء الكتب

ثم يتحدث الشاعر عن رسالة الأمة العربية التى انطلقت من قلب الجزيرة فغمرت الآفاق شرقاً وغرباً بالنور والعدل والحضارة ، ويثير فى خاطر هؤلاء الشباب الذين أوهن الاستعمار

إيمانهم بأنفسهم ، كوامن القوة والعزة الممتدة جذورها فى أعماق ماضيهم فيقول :

لم يزل فى خاطرى أن الذى قوّض الرومان بالرمح أبى !
كيف لا أذكر أجداداً لهم فتكة الإعصار عندالغضب
وجواداً قبّلت حافـره لجة البحر تجاه المغرب
وملوك الصين تهدى تربها لفتانا فى صحاف الذهب
نهضة بالدين شادوا صرحها ثابت الركن قوى الطنب

ثم يتساءل بعد ذلك موجهاً حديثه إلى شباب الأمة :

أعرفت الآن معنى أن ترى حاقداً يلبس ثوب الثعلب
عرف الإسلام ، ما غايته ما الذى يحمل للمغتصب
فمشى بالكأس مسموماً وكم يشهد الليل دبيب العقرب
همّه أن يصبح العرب بلا عاصم كالدين عند النّوب
همه المصباح لو أطفـأه أهلك السارين ليل العطب

إن الدين فى روحه أحد عناصر القومية العربية ، وفى أرض العرب ومن سمائهم أشرق الدين فى صوره المتعاقبة على لسان موسى وعيسى ومحمد . وليس كالدين قوة وعصمة وهدى للفرد والأمة .

وفى نشأة الشاعر الدينية ، بين أسرة اشتهرت بالتصوف والريادة فيه ، حقيقة نرى من الإنصاف أن نركز عليها الأضواء . . .

هذه الحقيقة تمثّلها الشاعر فى حياة أسرته ، وفى واقع حياته كما تضمنها شعره فى كثير المواقف .

وتلك هى أن الدين ليس عقيدة منعزلة عن الحياة ، وليست مجرد طقوس وعبادات فحسب ، ولكنها عقيدة دافعة فى الحياة إلى الخير والحق ، والجهاد فى سبيل الخير والحق حتى الشهادة ..

وكذلك التصوف ليس هروباً من الحياة ، وإنما هو تحرر من أغلالها ليستعلى الإنسان بنفسه وبالإنسانية إلى حياة أكرم وأرشد ، ومجاهدة تعين على الجهاد لتحقيق هذه الأهداف .

وكان ذلك هو الواقع الذى تمثله الشاعر فى حياة أسرته ، وأخذ عنه فى حياته . . .

وقد مرت بنا بعض المواقف التى تؤكد هذه الحقيقة ، ونعرض هنا الصورة الشعرية كما يعكسها وجدان الشاعر ، للرجل المؤمن بدينه حق الإيمان — فى أعلى مراتب الإيمان ، إذ يقول :

* تراه إذا ما لفّه الليل قانتاً … ويبدو إذا ما كرّت الخيل ضيغما
* تراه كميًّا فى النضال مدرعاً … وتلقاه ليلاً للقيام تأهبا
* من كل صنديد تضم ضلوعه … إحساس قديس وقلب شجاع
* إذا شهدوا الوغى كانوا كماة … يدكون المعاقل والحصونا
وإن جن المساء فلا تراهم … من الإشفاق إلا ساجدينا

ويمضى الشاعر الشاب على دربه ، تتفتح مشاعره كل يوم عن تجربة جديدة تعمق إحساسه بمواريثه الدينية والقومية ، وتنمى مواهبه وملكاته المتفاعلة مع الأحداث ، وتهيئه للالتقاء مع الثورة العربية الكبرى على موعد وقدر !

فلما قامت الثورة ، كان هاشم الرفاعى ظاهرة من ظواهرها المضيئة على حاشية الأفق وصورة من وجدانها تمثل حقيقة مجنحة فى سماء القومية العربية .

وكذلك كان قيام الثورة فى وجدان هاشم الرفاعى انطلاقة بعيدة المدى لمشاعره ، وانتصاراً رائعاً لما يهتف به فى شعره من معان وأفكار . ولم يكن الشاعر يومئذ بحاجة إلى أن يتلمس الطريق ليواكب الثورة فى انطلاقها نحو أهدافها ، لأنه كان يسير من قبل على هذا الطريق ، وكان يستشعر فى ضميره تلك الأهداف ، ويتغنى بها فى شعره ، ويرنو إليها من وراء الغيب يكاد يحدد مكانها على حاشية الأفق البعيد . . .

٩

وعرف الشاعر مكانه فى موكب البعث والتحرير والبناء ، وعرفت الأمة مكانه . . فكان شاعراً من ألمع شعراء الثورة العربية الكبرى ، اصطنعته الأقدار التى صنعت هذه الثورة . فهو يتغنى بمبادئها وانتصاراتها ، ويحدو خطاها فى طريقها الصاعد ، ويخوض معاركها فى كل ميدان . . .

استمع إليه فى « معركة القناة » يقول :

بمدفعه المغرور قد صال واعتدى
وراح علينا بالقذائف واغتدى
وأغرى بنا عند الحدود كلابه
وأرسل للعدوان يضرب موعدا
مؤامرة كانت أعدت وأحكمت
ولكنها ضاعت على بابنا سدى
وكائن[1] وقفنا فى لظى الحرب وقفة
نجسّم منها للبطولة مشهدا
بكل فتى يهفو إلى الدم سيفه
فلا ينثنى حتى يروّى له صدى
كتائب إن طالعتها يوم زحفها
تروّعك من أيمانها النار والمدى

ثم يصف كفاح بور سعيد وصمودها فى وجه العدوان ، ويقارن بينها وبين بلاد للمعتدين أنفسهم ذاقوا فيها مرارة الهزيمة والعار ، تجد هذه الصورة مفصلة فى عدة أبيات من القصيدة ، وتجدها كذلك وقد اجتمعت خطوطها فى بيت واحد إذ يقول عن المدينة الباسلة :

---

(١) كائن بمعنى كأى تفيد التكثير مثل « كم » قال جرير :
وكائن بالأباطح من صديق يراك إذا أصبت هو المصابا

وكانت لهم « دنكرك » أخرى ولم تكن
« كباريس » للألمان صيـــداً معبدا !

وكان الشاعر المؤمن الملهم يعبر عن الإرادة المنتصرة إذ يقول عن القناة وقد توقفت فيها الملاحة بسبب العدوان :

فلا صلحت هذى القناة ولا جرت
بحاجات قــوم لا يمرون سجّدا !

وقد كان . . .

فقد فشلت مؤامرة العدوان ، وارتد المعتدون على أعقابهم منكسى الرءوس والأعلام ، وأصابهم توقف الملاحة فى القناة بالفزع من سوء المصير . وصدق الشاعر المؤمن الملهم فى تعبيره عن الإرادة المنتصرة ، فلم تجر القناة بعد إصلاحها بحاجات أولئك القوم، إلا وهم يمرون بها سجداً ويعطون « الجزية » عن يد وهم صاغرون ! !

ويعود الشاعر أربعة عشر قرناً إلى الوراء ليقول على لسان الخنساء شعراً ، أو هو يبعث الخنساء فيمن بعث من شعراء العربية الذين أيقظتهم الصيحة فساروا فى موكب البعث والتحرير . . .

إن الخنساء تقف على قمة التاريخ وتنظر إلى الأفق البعيد عبر القرون والأجيال ، تتنور صورة الفتى العربى المأمول فتقول:

رأيت سناً يطل من الدياجى على آفاقهم ولمحت فجرا

كأنى بالفتى العربى يومـــاً — وقد عرف الطريق فسار حرا
وأدرك كل ما نصبو إليه — وأحرز فى مجال العز نصرا
وأمسك غمد مُنصله[1] بكف — ومدّ إلى سماء المجد أخرى !

إنها صورة البطل القائد ، وصورة كل فتى عربى يأخذ مكانه فى موكب البعث والتحرير . صورة لو حاول إبداعها مصور أو مثّال ، لما بلغ ما أبدعته ريشة الشاعر فى هذا البيت من روعة وإعجاز :

وأمسك غمد منصله بكف — ومدّ إلى سماء المجد أخرى !

ويقول الشاعر فى عيد الجلاء ، من قصيدة بعنوان «شعب وقائد» :

شعب يعانق مجده المسلوبا — ويشق آفاق الخلود وثوبا
قد أذّن الأحرار من أبنائه — بالبعث فانتفض الرماد لهيبا
ودعاه داع بالعلا كلف ، فما — ألفيت إلا سامعاً ومجيبا
وتلفّت التاريخ يشهد دولة — كبرى ، ويبصر قائداً محبوبا

ويتوجه الشاعر إلى القائد بالبيعة والعهد فيقول :

فانهض بشعبك يا جمال فإننا — جئنا نردد عهدنا المكتوبا
إن شئت أفعمنا الوجود محبة — بيضاء تعبق فى المدائن طيبا
أو شئت أنبتنا الأديم جماجما — تسقى دما يجرى لديه صبيبا

إنه دستور الثورة ، وعهد الأحرار . . بيننا وبين الأصدقاء والأعداء :

---

(١) المنصل بضم الصاد وفتحها : السيف .

ونمد كفا للصديق نديّة ونمد سيفاً للعدو خضيبا

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

إنى لأعمل للسلام ولغرس أزهار الوئام
الله يشهد ما بذر ت بذور شر فى الظلام
لكننى آبى لأرض ى أن تذل وأن تضام
هذى يدى . فيها الإخا ء وفى يدى الأخرى سهام
فالود منى للصديق وللعدا الموت الزؤام !

وكان الشعور بالقومية العربية من أعمق مشاعره وأكثرها امتزاجاً بفكره ووجدانه ، فهو شعور أصيل ينبع من مواريث الشاعر ومن روافد بيئته ومصادر ثقافته . ولهذا كانت صوره التى أبدعها عن « الجزائر الثائرة » وعن مأساة فلسطين فى قصيدته « وصية لاجئ » وملحمته الخالدة « رسالة فى ليلة التنفيذ » ومذابح الأحرار فى العراق ، والمحاكمات التى أهدرت دم العدالة. فى قصيدته « أغنية أم » . . كانت هذه الصور أسمى ما وصل إليه فنه الشعرى ، وأروع ما تردد فى سماء الأمة العربية من ألحان ، وأصدق ما عبر عنه شاعر عربى المشاعر والبيان . . .

بهواك ، بالدم فوق تربك يا جزائر
يجرى وينبع من حشاشة كل ثائر
بشهيدك الملقى على سفح المجازر
بالسخط يغلى فى القلوب وفى الخناجر

بالرابضين على القمم
الثائرين على الظلم
سنفجر الأضواء فى تلك الدياجر
وتسيل أفراح الحياة على المقابر

تلك هى الجزائر الثائرة ، كما تنعكس صورتها من وجدان الشاعر ، وكما تعيش فى وجدان كل ثائر من الرابضين على القمم ، وكل عربى ما بين المحيط إلى الخليج . . .

أما وصية اللاجئ إلى ابنه ، فهو بعد أن يصف له المأساة الدامية ، ويثير حنينه إلى مرابع طفولته ومستقر آماله ، يقذف فى نفسه شحنة تتجمع فيها عناصر المأساة ويهتف به قائلا :

إن جئتها يوماً وفى يدك السلاح
وطلعت بين ربوعها مثل الصباح
فاهتف على سمع الروابى والبطاح
إنى أنا الأمس الذى ضمد الجراح
لبيك يا وطنى العزيز المستباح

أو لست تذكرنى ؟ أنا ذاك الغلام
من أحرقوا مثواه فى جنح الظلام
بلهيب نار حولها رقص الذئاب
لفت حياتى بالدخان وبالضباب

وعلى ضفاف الرافدين ، كان الليل يلف أمّاً اتشحت

بالسواد ، وهى تضم إلى صدرها طفلا « ترضعه الجراح مع اللبن» فقد أعدم الطغاة أباه فيمن أعدموا من الأحرار الأباة . وهى تهنه الطفل الساهر بأغنية حزينة مقاطعها « تأجج بالدماء » .

ستمر أعوام طوال فى الأنين وفى العذاب
وأراك يا ولدى قوى الخطو موفور الشباب
تأوى إلى أم محطمة مغضّـنة الإهاب
وهناك تسألنى كثيراً عن أبيك وكيف غاب
هذا سؤال يا صغيرى قد أعد له الجواب

فلئن حييت فسوف أسرده عليـك
أو متّ فانظر من يسرّ به إليك

فإذا عرفت جريمة الجانى وما اقترفت يـداه
فانثر على قبرى وقبر أبيك شيئاً من دماه !

وفى هذه الأغنية تجلت كل طاقات الشاعر القومية والفنية ، فقد كانت مأساة القومية العربية هناك فى عنفوانها ، وكان الطغاة والعملاء قد صبغوا الرافدين بدماء القوميين الأحرار ، وأحالوا ضفافهما الزاهرة مجازر رهيبة حمراء !

وليس ببعيد أن تكون « أغنية أم » التى تجمعت فيها نيران الثورة المكبوتة فى صدور أبناء الرافدين ، ومشاعر السخط التى كانت تغلى فى صدور أبناء العروبة فى كل مكان . . ثم قذف بها الشاعر فى وجوه أولئك الطغاة والعملاء — ليس ببعيد

أن تكون هذه الأغنية التى نظمها الشاعر قبل مصرعه بفترة قصيرة . . . هى التى ألهبت فى قلوب أعدائه نار الحقد والانتقام !

وتكتمل شخصية الشاعر وتبلغ مشاعره مداها فى مختلف الأبعاد التى تمتد إليها رسالة الثورة العربية الكبرى ، فهو ينفعل بالأحداث التى تجرى فى الأقطار الإفريقية والآسيوية ، ويحس فى أعماقه بالجذور المشتركة التى تربط بين أبناء هذه الأقطار ، ويدرك وحدة الكفاح بينهم فى سبيل التحرر من أغلال الاستعمار ، وبناء مستقبل تمارس فيه شعوب هذه المنطقة حقها فى الحياة الحرة الكريمة .

استمع إلى الشاعر فى قصيدة بعنوان « رسالة من إفريقية » على لسان أحد جنود الاستعمار هناك ، يوجهها إلى فتاته فيما وراء البحار . إنه يصور فى هذه القصيدة الهول الذى يلف حياة أولئك الجنود وهم يخوضون معركة خاسرة ، بعد أن دوت فى القارة العذراء صيحات الحرية ، وتفجرت تحت أقدام المستعمرين براكين الثورة ، وآذنت شمس الاستعمار بالمغيب . . .

ومع المساء تزلزل الأحراش دقات الطبول
وترن أنغام الدمار على الروابى والسهول
ومراجل الأحقاد تغلى فى المراعى والحقول
وأمام حشد الزاحفين تفر أسراب الوعول
حتى إذا صرخ النذير
ودنوا من السور الكبير

جنّت بنادقنا ، وخاضوا نارها متقحمين
فإذا النصال من الشمال تلفّنا ومن اليمين

ويستيقظ ضمير الجندى الذى قذفوا به من وراء البحار إلى أعماق القارة السوداء ، ليسفك دم الأبرياء ويسفكوا دمه ، ويحمى اللصوص الذين يسرقون حريات الناس وأرزاقهم ، فيقول فى رسالته إلى فتاته :

أو ليس يكفينا لكى نحيا نتاج المزرعه
حتى أصب على أخى سوط العذاب لأخضعه
ويقض حيناً مضجعى وأقض حيناً مضجعه
وأعيش مغترباً هنا بين الرماح المشرعة
يأتى الطعام إلى فمى
مرّاً تلوّث بالدم
وأصوغ من آلام قوم جنة للمترفين
الحالمين ، وثورة البركان تهدر من سنين !

ويوحى المؤتمر الآسيوى الإفريقى للشاعر معانى يستمدها من أعماق التاريخ . إن الروابط التى تجمع بين الأمة العربية وبين الشعوب الإفريقية والآسيوية ليست وليدة الكفاح المشترك فى سبيل الحرية فحسب ، ولكنها روابط عريقة تمتد جذورها إلى فجر ذلك التاريخ ، يوم حملت الأمة العربية رسالة النور

والحرية والإخاء إلى مختلف الشعوب . . .

في آسيا وعلى جديب رمالهـــا شهد الورى ميلاد شعب واع
نبت الهدى والحق في جنباتها وجرى الضياء على لسان الداعي
وكما يسيل الفجر سال النور من هدى السماء على ربا وبقاع
ومشت مواكبه وفي أيمانهـــا آي تبلغها إلى الأسماع
من كل صنديد تضم ضلوعه إحساس قديس وقلب شجاع
وكسا الضباب الأرض في إفريقيا ما بين غابات بهـــا ومراعي
بسطت ذراعيها لتحتضن السنا طبًّا يخلصها من الأوجـــاع
عرفته فتحاً للبناء وللعـــلا قد جاء ، لا لمجرد الإخضاع
وتنسمت ريح المنى في زحفه من بعد حالك هونها الللداع
فإذا الوجوه السمر من أبنائها تطوي خضم البحر فوق شراع
وتدك خلف الماء عرش محكّم في الناس أو ملاك هناك مطاع

١٠

بقيت كلمة أخيرة في فن الشاعر وأداة بيانه .

ما هي طبيعة أسلوب الشاعر ، ومادته اللغوية ، وطريقته التشكيلية ؟

إن نشأة الشاعر في بيئة عربية أصيلة عرف أهلها بالفقه والأدب ، والتحاقه بمعهد ديني من أهم مواده علوم اللغة وآدابها ، ثم التحاقه بكلية دار العلوم ، وهي البيئة المتطورة لهذه العلوم

والآداب — كل ذلك زود الشاعر بحصيلة وفيرة من ذخائر اللغة وأنماط التعبير ، طوعت له إفراغ مشاعره القوية المتعددة الجوانب فى قوالب شتى من اللفظ المعبر والعبارة المؤتلفة والنسق المبين .

وكثيراً ما أثيرت قضية اللفظ والمعنى ، أو الشكل والمضمون . . فى تقييم الأدب والفن . وكنا نجد إسرافاً فى مذهب الذين يزعمون أن التمكن من اللغة ، والتعمق فى معرفة أسرارها ، والاحتفال باللفظ والشكل ، ليس شيئاً ذا بال فى تقييم الأدب ، وليس شيئاً ضرورياً فى بناء شخصية الأديب . وأن القيمة الحقيقية للأديب وأدبه هى صدق انفعاله وصدق تعبيره ، على أية صورة من الصور أو أى مستوى من البيان . . .

وكذلك كنا نجد إسرافاً فى مذهب الذين يستهلكون طاقاتهم فى الصياغة الشكلية والزخرفة اللفظية ، حتى تجف مشاعرهم فلا تجد لها فيما أنتجوا من فن أو أدب ، نضارة رى أو نبض حياة !

وحسب هذا المذهب وذاك بعداً عن الحق ومجانبة لمنطق الفن والحياة ، أن كليهما يقوم على الغلو والإسراف . . .

وهذا الإسراف ترجع بواعثه — فى الغالب — إلى العجز أو القصور فى ناحية ، فيكون الإسراف فى الناحية الأخرى لتغطية هذا العجز أو القصور . فالشاعر الذى تتوافر لديه عناصر الشاعرية ، ولكنه لا يملك أداة التعبير لضيق ذات يده أو ذات

عقله من الثروة اللغوية ، ولا طاقة له على التزام قيود الفن فى توقيع أنغامه . . مثل هذا الشاعر يحاول أن يغطى عجزه وقصوره فى الأداء ، بتلفيق مذهب أعجمى البيان مهلهل الأوزان ، ويسرف فى اصطناع هذا المذهب والدعوة إليه وتسفيه ما عداه أيما إسراف . . .

والشاعر الذى يملك أداته من لغة وأوزان ، ولكنه ضحل المشاعر محدود التجربة ، يحاول أن يغطى هذا القصور فى عناصر شاعريته ، لضيق ذات نفسه ، بالإسراف فى العناية بالشكل والإطار ، والزعم القديم بأن « المعانى » ملقاة على جوانب الطريق يلتقطها من شاء ، ولكن اختيار « الألفاظ » وفن الصياغة هو مقياس البلاغة وعنوان الإبداع . . .

إسراف هنا وهناك مبعثهما فى الغالب عدم تكامل الشخصية الفنية عند هذا الشاعر أو ذاك . وحين يوجد هذا التكامل بين عناصر الشاعرية وأداة البيان ، لا يقصر لفظ عن معناه ، ولا يستعجم معنى على مخارج حروفه ، ولا تضيق قافية بعاطفة . وإنما هو الشعر فى صورته الفنية الكاملة ، إحساس صادق ، وعبارة نابضة ، ونسق مؤتلف ، وإيقاع جميل .

وكذلك كان الشاعر هاشم الرفاعى . . .

وهو لم يكن كذلك منذ مارس التعبير بالشعر عن تجاربه النفسية والفنية . ولكنه كان منذ البداية يملك بذور هذه

الخصائص التى تنتج مع نموها فى وجدان الشاعر وملكاته هذه الصورة الفنية الكاملة .

وقد كانت تغلب على الشاعر فى أداة بيانه ، صور الانطباعات التى ترسبت فى وجدانه وفكره من قراءاته الأولى فى الأدب العربى القديم . فهو فى بعض قصائده الغزلية يقدم لنا هذه الصورة البدوية التى انطبعت خطوطها فى وجدانه ، فكانت من أسلوب تعبيره وأداة بيانه :

جيد الظبا والمقلة الحوراء   هذان يا قلبى هما الغرماء
كيف الوصول إلى التى قد ضمها   خدر تظلله القنا ، وخباء
إنى سعيت لها بقلب واله   وعلىَّ من نسج الظلام رداء
وخطوت مجتازاً إليها ساحة   للقوم حول خيامها إغفاء
وهمست من تحت الدياجى باسمها   وبدا لخطوى عندها إبطاء
ورأيت تحت السجف بدراً عند ما
برزت إلىَّ يلفها استحياء
ضربت بكف صدرها وتعجبت
من جرأتى ولعينها إيماء
فأجبتها : لا تعجبى ، غلب الهوى
ضحكت وقالت : هكذا الشعراء !

ولكن الشاعر كان كلما نمت شخصيته وازدادت روافده النفسية والفنية ، تخلص شيئاً فشيئاً من الأثر المباشر لهذه

الانطباعات ، ولا يبقى فى وجدانه وفكره إلا ما يتمثله ويحيله إلى صور جديدة تحمل نبضات مشاعره وملامح فنه . وبذلك تطورت أداة الشاعر فهى عربية البيان أصيلة الألحان ، تترجم عن واقعه الفنى فى اتساق وقوة وائتلاق :

أقسمت بالبطل الشهيد وبغضبة الشعب المجيد
وبثورة البركان بر كان العلا فى برسعيد
وبوثبة الأحرار حين أقضّ هم ذل العبيد
فى المغرب الدامى وأر ض عمان قد خلعوا القيود
لأحطّمن الطامعين الجا ثمين على الحدود

وهو حين يعود إلى استخدام الأداة الأولى فى شعره ، فإنما يجىء ذلك لا عن تأثر بانطباعات خارجية ، وإنما استجابة لمقتضيات الفن نفسه ، يتمثل ذلك فى قوله على لسان عروة بن حزام :

ألا من لقلب ناوحته الزعازع
وشوق قد انضمت عليه الأضالع

ونار لها بين الحنايا تأجج
تزيد ضراماً إن سقتها المدامع

وما زال هذا القلب مذ شطّ وَلْيُها(١)
وقطع ما بين الخليلين قاطع

---

(١) الولى : الموديج .

يكلفني عفراء والدار قد نأت

. وقد صدع العهد الذى كان صادع

فالشاعر فى هذه الصورة يبلغ قمة من الفن ، لأنه استطاع بما يملك من أداة بيانه أن يصور الجو النفسي الذى كان يعيش فيه شهيد بنى عذرة ، بأسلوب تحمل ألفاظه ملامح البيئة وخصائصها اللغوية والأدبية .

وقد يأخذ القارئ العجب وتملكه الحيرة ، حين يرى شاعراً مثل هاشم الرفاعى ملك أداة بيانه على الصورة الرائعة التى تضمنها شعره ، ثم هو مع ذلك يقول الزجل والشعر العامى .

وقد مرّ بنا أن اتجاه الشاعر إلى هذا اللون من الأدب كان تنفيساً عن عواطفه الحادة المثقلة بالهموم الكبار. ونضيف هنا أن الشاعر كان يرى « أن الزجل — لا الشعر — هو الأداة التى تصوّر بها أحاسيس رجل الشارع » وهو فى هذا الرأى لا يلتقى مع الذين يدعون إلى « العامية » كمذهب فى الأدب ، ولكنها ضرورة فنية تزول بزوال أسبابها ، وستزول هذه الضرورة يوم تزول عن رجل الشارع أميته ، وتتحقق له اشتراكية العلم والثقافة العامة .

وهذه الضرورة الفنية التى تفرض على الشاعر أن يعبر أحياناً بالزجل والشعر العامى ، لتصوير أحاسيس العامة ، هى نفس الضرورة التى فرضت عليه أن يستخدم الأسلوب الجاهلى

فى التعبير عن مشاعر شهيد بنى عذرة . . .

وإنما هى فى الحالين ، القدرة على امتلاك أداة البيان ، وفقاً لما يقضى به الفن فى مختلف بواعثه وأجوائه . . .

والشاعر فى أسلوبه التشكيلى يلتزم الطريقة العربية الأصيلة. إنه يلتزم بحور الشعر المعروفة ، وقد يتحرر من النمط الواحد فى القصيدة ، مع التزام التفعيلة – وحدة البحر .

وقد ترك الشاعر فى مذكرة بخط يده رأيه فى شكل القصيدة فقال إنه يرى – بناء على تجربته الشخصية – أن التمسك بالوزن والقافية لا يحول بين الشاعر وبين ما يريد أن يضمنه قصيدته من خلجات وأفكار . ويرقب بعين الحذر التطور الذى أدخله بعض الشعراء المعاصرين على شكل القصيدة العربية .

وكان برهان الشاعر على صدق رأيه فى التزام الوزن والقافية ، قصيدته التى نظمها بعنوان « صور وذكريات » وهى تبلغ خمسة وسبعين بيتاً ، التزم فيها قافية عصية . . ولكنها أسلست له قيادها وعرض فيها من صور الطفولة وذكريات الصبا ومغانى الريف وآلام الفلاح وآماله . . . آيات تكاد تبلغ حد الإعجاز !

ثم هو يخاطب الداعين إلى تحطيم عمود الشعر ، وتفتيت الوحدة الموسيقية للقصيدة ، وتحرير الشعر من قيود الوزن والقافية فيقول :

أيها الهاتفون بالشعر حـراً ... ولكم دعوة بـه طنانه
قد أتيتم له بنهـج غريب ... يفرض اليوم بينكم سلطانه
وتشدقتمو بزخرف قـول ... عن « مفاهيم » نمقتها الرطانة
ليس شعراً وإنما هو شيء ... فوقه الشعر رتبة ومـكانه
إنما الشعر ما تدفق عذبـاً ... فى بناء فأحكموا بنيانه
أسمعونا إذا استطعتم قريضاً ... لا خيالات جالس فى حانه
فإذا شقت القيود عليـكم ... فدعوه لمن يصوغ جمانه

* * *

ذلك هو الشاعر الشاب الشهيد : هاشم الرفاعى . . .

طاقة جبارة من الشاعرية ، وشحنة دفاقة من مبادىء القومية العربية ، والتزام صادق فى الفن والحياة .

وتلك بعض ملامح حياته وفنه ، نقدمها للتعريف بحياة الشاعر وبواعث فنه وخصائصه النفسية والفنية ، وتحية للشاعر الشهيد فى يوم ذكراه . . .

رثاء وتقدير

أقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، حفلا لتأبين الشاعر الشهيد يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٥٩ بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة . وفى الصفحات التالية مختارات من الكلمات والقصائد التى ألقيت فى هذا الحفل . إنها طاقة من الأزاهير ندية الأوراق متجددة العبير ، نضعها على ضريح الشاعر الشهيد فى يوم ذكراه . . .

افتتح السيد كمال الدين حسين
حفل التأبين بالكلمة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أشهر قليلة ، فوجئت مفاجأة مذهلة ، حين قرأت وأنا فى غيبة قصيرة عن أرض الوطن ، نعى هاشم الرفاعى فى إحدى الصحف العربية . . .

لم أصدق عينيّ لأول وهلة ، فقد كان عهدى بهاشم الرفاعى غير بعيد ، يوم وقف فى دمشق العربية ، بين الآلاف من الشيوخ والشباب ، ومن الأمهات والبنات ، تتدفق حماستهم وتهدر ، وهو ينشدهم شعره فى مهرجان الشعر الأول ، وينفث أناته وزفراته حمماً من لهب وشواظاً من نار . . .

أنات وزفرات من الظلم والطغيان الذى يسيطر على القطر العربى الشقيق ، وعلى الشعب العربى الشقيق ، فى بغداد وما حول بغداد . . .

وحمم ولهب ونار على الطغاة الظالمين الغادرين من حكام

العراق ، الذين انحرفوا بثورته التاريخية المجيدة إلى عكس أهدافها ، وإلى ضد مراميها ومبادئها . . .

وكان عهدى بهاشم الرفاعى غير بعيد ، يوم وقف فى العيد الثانى للوحدة المجيدة الخالدة ، يحيى الوحدة ويباركها ويعاهدها عهد الوفاء وعهد الفداء ، فى خضم زاخر من مئات الآلاف من الشباب ، قد احتشدوا للاحتفال بهذا العيد الخالد ، وليروا ويسمعوا قائدهم ورائدهم وحامل رايتهم إلى المجد جمال عبد الناصر . . .

وكان عهدى به غير بعيد ، يوم رأيته من قبل ومن بعد ، مرتين أو مرات ثلاثا ، يعتلى المنصة فى بعض ندوات الشباب ، ينشد من شعره فى كفاح بور سعيد الباسلة ، ويصف الدم العربى المشترك الذى بذله الأخوة العرب ، دفاعاً عن هذا الجزء الغالى من وطن العرب ، الذى أبت قوات البغى والعدوان وشراذم العصابات إلا أن ترده بعد عز الحرية إلى ذل الرق ومهانة الاستعمار ، فكانت وقفة العرب التاريخية التى نصرت الحق ورفعت راية الحرية ، وكان اندحار كل قوى البغى والعدوان .

كان عهدى بهاشم الرفاعى غير بعيد فى هذه المواقف القريبة ، وكنت أتطلع إلى المستقبل الذى ينتظره ، وأرى الشعلة التى يحملها تصعد متوهجة الضياء فى سماء الشباب والشعر والوطنية ، فيمتلئ قلبى ثقة بالمستقبل واطمئناناً إليه ، إذ أرى

شباب الثورة قد أخذوا أهبتهم لحمل أعباء المستقبل الثقال ، وأرى واحداً من قادتهم فى ميدان الرأى والشعر والأدب والروح ، تؤهله حماسة وخلق وجد وعزيمة ، ليتخذ له مكاناً بين صفوف الطليعة . . .

كانت الشعلة التى يحملها أذاناً ببزوغ فجر جديد ، ولكن سرعان ما أطفأتها يد الإجرام والحقد والغدر والخسة . . .

لقد علقت بهاشم الرفاعي أملاً كبيراً ، فكانت صدمة فجيعتى به ، على قدر عظيم أملى فيه . . .

كانت أناشيده للحرية أنغاماً عذبة تشجى كل باحث عن الحرية وكل مجاهد لها فى كل وطن .

أحببت هاشم الرفاعى ، لأنى رأيت فيه صورة لما أحب من شباب وطنى وأمتى ، فكان حبي له لوناً من حبي لوطنى وأمتى . . .

لقد كان نموذجاً طيباً للشباب العربى الطيب ، عاش لفكرة آمن بها ومات دفاعاً عنها ، وبفكرته وبإيمانه سيحيا ويمتد فى الزمن ما امتد الزمن . . .

إن الذين ضاقوا بفكرته فاغتالوه بالخنجر المسموم فى الظلام ، لم يكن كل قصدهم أن يقتلوا هاشم الرفاعى ، إنما كانوا يريدون أن يطفئوا شعلة ويخفتوا صوتاً ويمحوا صدى ، ولكن هاشم الرفاعي الذى غيبه القبر منذ بضعة أشهر ، لم يزل

مضيء الشعلة ، عالى الصوت والصدى . . .

إن صورة هاشم الرفاعى باقية هنا ، فى نفوس شباب الجمهورية العربية المتحدة ، الذين يعتدونه مثلاً وقدوة ومفخرة.

وقصته باقية هنا ، بين أبهاء هذه الجامعة . . . التى فقدته ، عضواً بارزاً من أسرة هذه الجامعة ، وأسرة كل جامعة ، فى الجمهورية الا ربية المتحدة .

باقية فى كلية دار العلوم ، التى تعتده خريجاً من خريجيها ، وإن استشهد قبل أن يستكمل صفة الخريج ، لأنه فى سبيل رسالتها للقومية وللعروبة كان رأيه وكان استشهاده فى سبيل هذا الرأى .

قصته باقية فى إنشاص ، القرية الرابضة على حدود أرض المعركة التى تحقق فيها النصر للأمة العربية والخذلان لأعدائها .

قصته باقية فى دمشق ، حيث لم تزل أصداء هتافه للحرية ، وللوحدة ، وللحب والسلام والرحمة ، تتجاوب مع أهازيج الطير وحفيف الغصون فى بساتين دمشق الفيحاء . . .

قصة باقية فى كل مكان ، وفى كل أرض ، وفى كل نفس ، لأنها قصة الشباب المؤمن ، المنطلق فى إخلاص يرسل النغم ويرتل الأناشيد لحب الوطن ، ومجد الوطن ، وحرية الوطن ، ووحدة الوطن . . .

ستبقى قصة هاشم الرفاعى ، وستبقى روحه ، تدفع شباب

الشعراء لحمل المشعل والراية ، لا تثنيهم عن بلوغ الغاية خيانة خائن ، ولا غدر غادر ، لأن فى نفوسهم إيمانهم ، وشعورهم بواجبهم ، يدفعانهم إلى الفداء والبذل ، وإلى القول والعمل ، مترسمين خطاً جريئة شجاعة مؤمنة ، خطاها قبلهم على الطريق هاشم الرفاعى . . .

إن الراية التى حملها لن تسقط ، والمشعل الذى أضاءه لن ينطفىء ، والمبادئ التى ترسمها لن تنمحى . . . ستنتصر دائماً مبادئ المحبة ، والوفاء ، والبناء ، على مبادئ الحقد والغدر والتدمير . . .

إن الشباب المؤمن ، الواعى ، المستنير ، لا يمكن أن يتنكب طريق الخير والحق والفضيلة ، لأن واحداً منهم قد ذهب ضحية هذه المبادئ ، بل سينتصرون للخير ، ليثبتوا أن الخير جدير بأن ينتصر ، ويكافحون فى سبيل الحق ، ليبلغوا من حقهم ما أرادوا ، ولتظل منارة الحق مضيئة عالية ، تتنور نبراسها فى كل طريق جموعهم الزاخرة ، الزاحفة إلى المجد ، وجموع مواطنيهم الذين يستضيئون بأنوار إشعاعاتهم القوية الوضاءة . . .

إن الشباب المؤمن ، الواعى ، المستنير ، لا يبالى ما يصيبه من مكروه فى سبيل عقيدته ، ورأيه ، والغايات العظيمة التى يطلبها لوطنه . إنهم خليقون بأن يتمثلوا أبداً قول شاعرهم :

لو لم أكن فى ثورتى متطلباً   غير الضياء لأمتى لكفانى

أهوى الحياة كريمة لا قيد، لا إرهاب، لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت سقطت أحمل عزتى يغلى دم الأحرار فى شريانى

لست أدرى أأرثى شباب الشاعر الذى استشهد قبل أن تدق أصبعه على كل أوتار نفسه الشاعرة ، أم أرثى شعره الشاب الذى انبتر لحنه الدافق بحيوية الشباب قبل أن يستكمل أنغامه . . . لست أدرى ، ولكنى أدرى أن هنا شاعراً شاباً وشعر شباب ، بكل ما يدل عليه معنى الشباب من قوة وعنفوان ، ومن إيمان وأمل . . .

شاعر شاب ، انصهرت فى نفسه كل آمال أمته ووطنه ، أمته العربية ووطنه العربى ، وتجاوبت فى أعماقه كل أصداء النداءات الصارخة من كل حدب وصوب ، من أرض فلسطين الشهيدة ، إلى أرض الجزائر المجاهدة ، إلى أرض بور سعيد الباسلة ، إلى أرض العراق المخضبة بدم الأحرار من أهل الإيمان والفضيلة ، وكأنما أبت موجة الطغيان والبغى التى تغمر العراق الآن . . . حين رأت هاشم الرفاعى يثور على طغيانها وبغيها ونذالتها . . . أبت ألا أن تحرقه بنارها ، وتضمه إلى قائمة الشهداء الأبرار من أحرار العراق ، فقتله العملاء غيلة وغدراً بمثل الأسلوب الوحشى الذى وصفه الشاعر الشهيد فى آخر قصيدة نظمها للتنديد بطغيان جلادى شعب العراق ، وكأنما كان يتحدث من وراء الغيب عن قصة اغتياله وقصة إخوان له

فى سجون العراق إذ يقول :

دمع السجين هناك فى أغلاله ودم الشهيد هنا سيلتقيان
حتى إذا ما أفعمت بهما الربا لم يبق غير تمرد الفيضـــان

وكما كان شهيد اللاذقية جول جمال فى بور سعيد ، رمزاً على وحدة الكفاح بين مصر والشام فى سبيل الحرية ، كان دم الشاعر الشهيد هنا ودمع السجين المقيد بأغلاله فى بغداد ، رمزاً آخر على وحدة الكفاح فى سبيل الحرية ، بين مصر وبغداد ...

لقد عاش هاشم الرفاعى حياته شاعراً بطلاً ، ومات ميتة شاعر بطل ، وكان فى حياته وموته صادق التعبير عن نفسه ، وعن مشاعره ومشاعر أمته ، لو شاء باحث أن يعرف حياته كاملة من شعره لوجد فى شعره كل أسباب المعرفة لحياته ، ولو شاء شاعر أن يقرأ آخر قصيدة لم ينظمها هاشم لقرأ قصة موته ، إنها خاتمة ديوانه ، وآخر قصائده الصامتة . . .

رحم الله هاشم الرفاعى وشكر سعيكم له ، وأيدكم بالإيمان والعزم والقوة ، ليمتد بكم فى الزمان أثره وتاريخه . والسلام عليكم ورحمة الله .

* * *

وقال السيد يوسف السباعى
السكرتير العام للمجلس :

أذكر أنى ما التقيت بالسيد كمال الدين حسين وجاء ذكر الشعر والشعراء إلا وسألنى :

ــ ألم تر هاشم الرفاعى ؟

وأهز رأسى بالنفى . . فيقول :

ــ إنه شاب عجيب . . إنه نابغة . . لا بد أن تسمعه . .

ورأيته فى مهرجان الشعر أول مرة . . شابًا أسمر متين البنيان فى ملامحه رجولة . . وفى خطواته اعتزاز وقوة . .

وبدأ يلقى قصيدته بلسان شهيد يوشك أن يلقى حتفه وهو يحدث أباه من وراء قضبان السجن . . وكانت الثقة ملء صوته. وكان فى إلقائه إيقاع . . يأخذ بالكلمات فتتقدم ثابتة موزونة ، ونغم . . يحيط بالمعانى فتنساب فى رفق هادئ مريح . .

ولقيته آخر الحفل . : وشددت على يده وهنأته . . وعدت إلى القاهرة . . وصدى الشاعر ملء أذنى . . وقبل أن أدعوه للقاء . . قرأت نبأ مصرعه . .

لقد كان هاشم من خير شبابنا . . كان رجلاً وكان عبقريًا . . رحمه الله . . وعوضنا فيه خيراً .

هتف النعاة على دمشق . . .

من قصيدة الأستاذ شفيق جبرى
مقرر لجنة الشعر بالإقليم السورى

هتف النعاة على دمشق فلففت بيض الثياب
ورمت إلىّ بحزنها والليل مسودّ الخضاب
فركبت متن الريح يدفعنى السحاب إلى السحاب
وأتيت « مصر » ودونها أفق مغطى بالضباب
حتى لقيت النيل مضطرم الغوارب والعباب

* * *

يا زهرة لو أمهلت ملأت نوافحها الرحاب
لهفى عليك فهل يطول على الحمى منك الغياب
لم أنس شعراً فى دمشق كأنه الصدق اللباب
فيه الفتوة والرجولة والدعاء إلى الوثاب
إيمانه ملء القلوب وصدقه ملء العياب
ذابت حشاشته على وطن تعبّده وذاب
فبمثله عز الحمى وبمثله طاب النصاب
عجبى لمن ألقى عليه سلاحه حتى أصاب !

لهف نفسى !

من قصيدة للأستاذ على الجندى

لهف نفسى على الصبا المنضور   لفه الغدر فى ظلام القبور
لهف نفسى على القريض المصفى   صوحت زهره عوادى الشرور
لهف نفسى على النبوغ المسجّى   برداء من البلى والدثـور
فجعتنا عصابة الكفر والإلحا   د والبغى والخنى والفجور
بالمجلّى السامى على كل قـرن   فى مجال المنظوم والمنثور
بالرفاعى فى غرائب ما يأتيـ   ـه من زخرف ومن تحبير
بالمكنّى فى شعره بابن أوس (١)   والمسمى بالبحترى الصغير
ذبحوه ويأرج المسك مذبو   حاً ، وبالذبح كان فخر العطور
قتلوه بغياً ليخفـوا سنـاه   كيف يخفى سنا الصباح المنير

* * *

ولدى هاشم وما كنت إلا   ولدى فى وفاتك المأثور
جدك السبط ــ وهو أكرم سبط ــ   لقى الله بالنجيع الطهور
لم يحصنه من كلاب الأعادى   أنه بضعة البشير النذير
فتمل الرضوان فى الخلد وانعم   بين ولدانها وبين الحور

---

(١) ابن أوس : أبو تمام .

الشهيد الخالد . . .

للأستاذ محمود عماد

برعم فتح من قبل الأوان نشر العرف وشيكاً واستكان
أتراها دفقة من عـــرفه أنخدرته أم جناها فيه جان
لو درى الجانى على من قد جنى لتهاوت ندما منه اليــدان
بل دراه وأتى فعلتـــه مذ أتاها ــ وهو مثلوج الجنان
أفـــا بيّت أمـــراً حيـــنما بيت السكين واختار المكان؟
اغتفر يا ذئب فى القفر لنا ما اتّهمناك به فى كل آن
إن منا من إذا أبصرتـــه قلت : إنى شيخ نُسّاك الزمان!

* * *

أنت يا هاشم قد زلت ومـــا زلت فى صحبك تبدو للعيان
لست أنسى زهرة قد هزهـــا شعرك الباكى بيوم المهرجان
فانبرت تدفع جمعاً حاشدا وتلقّتك بفيض من حنـــان
ثم قالت : ما اسم من أنشدنا ؟ فتسميت . . فأعياها البيان
ومضت باكية عن حفلنـــا قبل أن يعقب هذا الشعر ثان
أنت قد أبكيتها حيًّا فيـــا شدّ ما تبكى وذا حينك حان
أدرت أن الذى أعجبهـــا أجهز الحقد عليه فى ثوان
لا . . فما مات سوى الحقد وما زلت يا شاعر مرعىّ الكيان
إن من تذكره دولتـــه فهو باق والذى تنساه فان

دمعة دمشق . . .

للدكتورة طلعة الرفاعى

ورنت دمشق إلى الضياء وهللت لفتى تخطى عالم الفتيان
تصغي إلى لحن الخلود يريقه فيض سماوى السنا . . ربانى
ويسود صمت لا تحس خلاله إلا هدير الوحى والإيمان
وتقمص الجمع الغفير بواحد وكأن آلاف الأكف يدان
صور من الملأ الكبير سخية هى فوق كل تصور وبيان
صور من الروح المعذب صاغها ملك كبير الروح والوجدان
فإذا دمشق تموج بين دموعها فى رفق إشراق وسحر معان
وتساءلت عنه . . فقيل فتاك من أرض الجهاد يزينه بردان
برد النبوغ العبقرى يلفـــه بأريجه برد الصبا الريـــان

* * *

أنا لست أنسى يوم قولك : يا أخى «والحبل والجلاد منتظران[1]»
وكأنما كنت النبى منبهـــاً فى وحيه للغدر والعـــدوان
ما ضر لو صبرت ركابك يا أخى ووقفت تشهد ثورة البركان
ورأيت سيل النار يهدر هازئاً بجماجم الأنـــذال والعبدان
ورأيت موكب أمتى فى زحفها ألقاً يبيد دياجر الطغيان

---

(١) إشارة إلى قصيدة الشاعر الشهيد « رسالة فى ليلة التنفيذ ».

يا شهيد البيان

للدكتور أحمد عبد المقصود هيكل

فقده جل أن يكون مصابا فلقد كان محنة وعـــذابا
محنة وشحت فــؤادى سوادا وعذاباً غشي عيونى ضبابا
إن نصلاً أصاب هاشم غدرا مالى مهجتى مدى وحرابا
فلقد كان فرحة تفعم « الدا ر » رجاء وبهجة وشبابا
ولقد كان نغمة فى الفم النيـ ـل ولحناً فى سمع مصر عجابا
ولقـــد كان للعروبة ناياً يتغنى بمجـــدها خلاّبا
يتغنى فتحسب الوحي قد عا د يملـــى من القريض كتابا
ولقد كان وهو بعد هـــزار يسبق النسر للعلا والعقابا
ولقد كان وهو عـــود رطيب يفرع الدوح والجذوع الصلابا
ولقد كان وهو نبـــع صغير يزحم النهر هادراً والعبابا
ولقد كان وهو مثل بنينـــا إن شدا بزّنا فنحنى الرقابا
كيف يهوى النجم السنى إلى الأر ض ويمسى تحت التراب ترابا
كيف تردى النسرَ المحلق كفٌ هى أحرى بأن تصيد الذبابا
كيف تفرى الذئاب قلب ملاك قد أحب الأحياء حتى الذئابا
يا شهيد البيان هذا بيانى ذاهل اللحن لا يحير جوابا
يا شهيد البيان طر فى ذرى الخلـ ـد وخذ جانب الإله رحابا

لن ننسى . . .

الدكتور عبد الحكيم بلبع

. . إيه أيها الصديق العزيز !

لم يكن فى الحسبان أن ننعاك وأنت ما زلت فى عمر الورود . لم يكن فى الحسبان أن تصبح ذكرى أمسنا وأنت الذى كنا نرجيك لغدنا ؛ فكم كانت لنا فيك مع الغد آمال ، وكم كانت لك أنت مع الغد آمال . . آمال نضرتها بألحانك العذاب ، آمال وطنك الحبيب الذى طالما غنيت له أعذب أغنيات النصر ، وطالما اهتزت نفسك لأحداثه الكبيرة فسكبت هذه النفس شعراً حيًّا لايزال ينبض بالحياة ، وسيظل أبداً ينبض بالحياة . . .

لن ننسى — يا صديقى العزيز — مواقفك الرائعة الخالدة التى صنعتَ بكل موقف منها مجداً ، ونسجت فى كل موقف منها خيطاً فى قصتنا الكبيرة . . قصة كفاحنا من أجل الحرية والحياة .

ولكأنى بك حينما مثلت بخاطرك قصيدتك العظيمة « رسالة فى ليلة التنفيذ » ، إنما كنت تستلهم أحداثها من مصيرك أنت ، وهكذا كان إحساسك بوطنك وأمتك ، وهكذا استطعت أن تصنع من حياتك القصيرة قصة كبيرة حافلة بالأمجاد والمفاخر . . .

مع الخالدين

للأستاذ صالح جودت

اللاجئون يولولون عليك ولـــولة الثـــكالى
وبنو الجزائر يصبغون بيوم مصرعك الجبالا
والثائرون بـــكل أرض حـــرة ترد القتالا
شقوا محاجرهم عـــلى فجر تهلل ثم مـــالا
وذووك من هول المصاب عيونهم تندى الرمالا
من كل نائحة عليك وكل سائلة سؤالا :
أين الذى زاد الملاحم من جوانبـــه اشتعالا؟
وأنا أسائل : أين قاتلك الذى هدم المثالا؟
إن عده نصرًا ، فمغلوب من انتصر اغتيالا
أو كان ثعباناً فكيف على« الرفاعى» استطالا!
أوكان يطلب ما بلغت علاً فقد طلب المحالا
أو كان يطمع فى فنائك فالخلود إليك آلا
ولرب يوم فى شبابك يعدل الحقب الطوالا
يوم كيومك فى دمشق وقد تقدمت المجالا
ودمشق مهد الشعر منذ أمية طابت ظلالا
إن كان لم يرحم شبابك حاسد ركب الضلالا
فاركب براق الخالدين ولذ برحمته تعالى

شهيد الأحقاد

للأستاذ عبد الله شمس الدين

قضيت حياتى لا أحب المراثيا
وما جئت كى أبكى وما جئت راثيا
ولكننى للمجد جئت ملبيــاً
أحيى نشيداً فى فم الخلد ساميــا
أحيى شهيداً قام فينا مغنيــاً
من الملأ الأعلى يرف أغانيا
يمر على حقد الـتراب معاتباً
ويومى إلى تـــكريمه اليوم راضيا
فيا شادياً ما زال يرجف أيكه
ذهولاً ، ويا كم رجّع الشدو باكيا
رمتك يد الأحقاد فى بسمة الصبا
وما رحمت فيك الصبا والأمانيــا
وما مات من غنى الخلود بشعــره
وعاش صداه فى فم الدهر شاديا
ولا مات من وفى العهود بروحــه
وقد كان درعاً للعروبة فاديــا .

مات شاعر . . .

للأستاذ إبراهيم عبد الحميد عيسى

الليل والصمت الرهيب طوى انطلاقات الصباح
والدمعة الخرساء أطلقها على الخـــد النواح
والآهة الشـــكلى تئن بها السوافى والريـــاح
والأفق مربدّ الأديم فلا يرف بــــه جناح
ماذا وراء الكون . . ماذا يحمل القدر المتاح ؟
فرنا الوجود إلىّ مخبولاً بكىّ القلب حاسر
وتعثرت كلم الزمان وقال لى : قد مات شاعر

* * *

ماذا أقول وقد تعثر فى فمى حتى النـــواح
والشعر فى شفتيك إلهـــام لغيرك لا يتـــاح
طعنوك . . هل طعنوا سوى ألق الرجولة والكفاح ؟
خنقوا الزهور وبعثروا أوراقها فوق البطـــاح
أنا لست أدرى هل بقلبى ما بقلبك من جراح؟
يا صاحبى والموت حصّاد عمىّ الخطو عاثر
رغم الردى . . قال الورى : لالم يمت من مات شاعر

صديقى .. عد !

الشاعر أنس داود
الطالب بكلية دار العلوم

صديقى . عد ، عاد كل الرفاق ، أأنسيت أن هنا الموعدا
مكانك .. مجلسك الشاعرى .. تبدّى كسيف الرؤى أربدا
وعبر الدروب البعاد تسمّع خطوك واشتاق منه الصدى
وما زال فى حيرة الانتظار ، يفلسف حيرته مفردا
صديقى .. أنا والمكان هنا .. نناديك .. ننتظر الموعدا

* * *

أهاشم : يا قصة العبقرية زف الزمان لك السؤددا
وأرغم إكليل غار على أن يتوج شاعره الأوحدا
مكانك .. مجلسك الشاعرى .. تسربل جلبابه الأسودا
نظرت إليه غداة النعىّ أتى كالحا ، شاحبا ، أربدا
فألفيته بقعة من دماء .. تروع النواظر والأكبدا
وحملته مضجعاً لرؤاى .. يفزّع صحوى والمرقدا
وما زلت أرتاع حين أراه ، وأغضى له خائفاً مرعدا
وأبعد عنه .. فيبقى وحيداً ، يفكر .. ينتظر الموعدا

لهفة الذكريات *

للأستاذ محمد على أحمد

. . بلى، إنه الليل ليل القريض، فأين ترى صاحب الصوبلجان؟
وأين القوافى تهز الجموع ، وأين الغوانى وأين الحسان ؟
ترقرق أعينهن الدموع لشدو القصيد وسحر البيان
بلى إنه الليل والشعر يبكى . . لك الله يا شاعر المهرجان !

* * *

ألا إنها لهفة الذكريات تلم خيوط الفضاء السحيق
وتمشى بنا فى دروب الأمانى فنمضى ويدعو خطانا البريق
نكاد من الشوق نرقى المحال كما تلمس الشط كف الغريق
فتصدمنا مبهمات الغيوب وندرك أنا ضللنا الطريق

* * *

أخى فى الخيال ، أخى فى النضال ، أخى دمت للمجد فى الخالدين
كأنى أراك برغم القضاء تلوّح بالنصر للمخلصين
كأنك فى الحفل تدمى الأكف وتتلو علينا خطاب السجين
أخى أنت لحن ستصغى السنون إليه فيبقى بقاء السنين

* ألقيت فى الحفل الذى أقامته كلية دار العلوم بنادى الطلبة الشرقيين .

شكر وعزاء
كلمة أسرة الشاعر

للأستاذ مصطفى الرفاعى

بسم الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
أيها الأحباب :
أرأيتم إلى المصباح .. يشرق حيناً .. ثم يختنق .. ؟
أرأيتم إلى الزهرة .. تزهو وتألق .. ثم تذبل وتصوح .. ؟
أرأيتم إلى الحلم الجميل .. يحلق بالمهومين فى دُنا من الأمانى الرائعات .. ثم يوقظهم فى عنف .. ليردهم إلى دنيا الواقع .. ؟
أرأيتم إلى الأمل الحبيب .. يداعب الآملين .. فيدنو .. ويدنو .. ثم ينأى ويتلاشى .. فإذا به ومض سراب بقيعة .. ؟
أرأيتم إلى البيرق .. يتصدر الموكب مختالاً خفاقاً .. تدق من حوله طبول الفرحة .. ثم يطوى وينكس .. فينفض عنه السامرون .. ؟
كذلك كان هاشم — يا أحباب :
مصباح أشرق ثم اختنق .!
وزهرة زهت وألقت ثم ذبلت وصوحت .
وحلم جميل طاف بنا ثم ردنا فى عنف إلى الواقع المر .

وأمل تلألأ ثم بان أنه ومض سراب بقيعة .

وبيرق طوى ونكس وانفض عنه السامر الحزين .

ولئن جل المصاب فى هاشم — يا أحباب — فإن عزاءنا فيه وعنه أنه قضى شهيد مبدئه وعقيدته ، وعروبته وقوميته ، تلك القومية التى تفجر إيمانه بها شعراً . . شعراً فيه عمق هذا الإيمان ووضاءته ، ودفعه وقوته .

لا نقول : هاجت الأحزان ، ولا نقول : استبدت الأشجان ، ولا نقول : انفطرت القلوب أو احترقت الجفون ؛ فإن رحمة الله تداركتنا ، فامتدت إلينا من هناك يد ، يد بيضاء رحيمة ، كفكفت عبراتنا ، وشدت ظهورنا ، وربطت على قلوبنا ، أتدرون يد من ؟ إنها يد جمال .

فإلى ذلك السيد السند ، راعى العروبة ، وقائد نهضتها ، وباعث قوميتها ، وجامع كلمتها ، أمل هاشم المرتجى قبل الثورة ، وملهمه بعدها ، الذى جدد عهداً ، وصدق وعداً ، وشيد مجداً ، وأفسح ببطولته للشعراء مجالات فشعروا ، وهيأ للكتاب غايات فنثروا .

وإلى الوزير الكبير ذى القلب الكبير ، السيد كمال الدين حسين ، رائد النهضة العلمية ، وقائد الحركة الأدبية ، من أفاض على أسرة الشاعر من جميل المواساة ، وموفور الرعاية ، وسابغ العطف ، ما عزاها عن فقده خير عزاء .

وإلى السيد الوزير أحمد نجيب هاشم ، من عزى ورعى ، فأحسن الرعاية ، وأجمل العزاء .

وإلى الملأ من رجالات الجامعات ، الذين كرموا هاشماً حياً وكرموه شهيداً .

وإلى السادة الشعراء والأدباء ، الذين خلدوا الشهيد ، فى أسماع الوجود .

وإلى رجال الصحافة والإذاعة ، الذين احتضنوه فى حياته ، واحتضنوا قضيته بعد مماته .

إلى الذين سعوا إلى هذا الحرم ، يكرمون ويحيون .

إليكم جميعاً — يا أحباب — عميق شكرنا ، وخالص دعائنا

شكر الله سعيكم ، وأجزل أجركم ، وأطال بقاءكم . وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والسلام عليكم ورحمة الله .

مختارات

١ ــ صور وذكريات .

٢ ــ مساكنكم يأيها النمل !

٣ ــ عيد الثورة .

صور وذكريات

طفولة الشاعر وصباه ، وألوان الحياة النابضة فى الريف ، تصورها هذه القصيدة الطويلة التى التزم فيها الشاعر قافية عصية أسلست له قيادها ، ليدحض بها دعوى القائلين إن الشعر فى بنائه التقليدى يحول دون حرية التعبير ودقة التصوير .

ولو أن قصيدة تغنى عن ديوان فى الدلالة على حياة شاعر وفنه ، لكانت هذه القصيدة فى الدلالة على حياة هاشم الرفاعى وشاعريته .

فى ربوعٍ ظلالُها فتانـــه يبسط السحر فوقها ألوانه
صادح الطيّر فى رباها تغنىٍ وشدا للخميلة الفينانه
وجرى الماء بالحيـــاة نمـــاءً طرّز العشبُ والندى غدرانه
ونسيمٌ مؤرّج قد تهـــادى فى مجون يراقص السنديانه
بين تلك الربا وهذى المغانى والرؤى والمفاتن العـــريانه
قدعرفتُ الوجود طفلاً بريئاً حظه منه أن يمص بنانـــه
ورأيت الدنا بعينىْ صبى لم يكن بعدُ حاملاً أحزانه

يتبع الرفقة الصغار للهو قد أعدوا فى بيدر [١] ميدانه
ويجدّون فى اصطياد فراش طاف بالحقل مسرعاً طيرانه
ولكم عربدوا بضفــة نهر وتحدى سبّاحهم خلجانه
وعلى الشاطئ المقابل راع ساق للعشب فوقه قطعانه
وإذا ضمه من التوت ظــل داعب الناى مرسلاً ألحانه

* * *

لست أنسى انطلاقتهم فى الليالى يوم أدنى السرور منهم دنانه
أزعجوا النائمين بالدرب لهواً صارخاً شق للفضاء عنــانه
ويقرّون فى قــرار خفى حين يأتى الخفير بالخيزرانه
ذكريات تلوح للعين خطاً من سنى أوهن الأسى لمعانه
أبعد الدهر عهدها وفؤادى لم يزل خالطاً بها خفقــانه
ووعى الريف صورة من حياة برّة عشقها وسل رمضانه
أمسيات من الضياء وليل رف فى جنحه الإخاء وزانه
ساهر [٢] عنده تجمّع قومى حول شيخ مرتل قرآنــه
فى خشوع لا يسمع المرء منهم غير همس: سبحانه سبحانه!!

* * *

الشموع التى بأيــدى صغار أسعدتهم دموعها المتانه
والأساطير عن حروب رواها (شاعر) فى الندىّ أعلوا مكانه
وطبول السحور فى هدأة اللي ل بفيطرىّ جرسها رنانه

---

(١) البيدر : المكان الذى يدرس فيه القمح ونحوه .
(٢) الساهر : مكان السهر .

والتراويح تحت خفق شعاع لقناديل تشتكى الاستكانه
والتسابيحُ كلَّ مطلع فجر قبل أن يعلن الإمام أذانه
ودبيب الشيوخ نحو المصلى أملوا عند ربهم غفـرانه
صور تملأ الغـداة خيالى حين أطلقت للخيال عنانه

* * *

وتقضّى الصبا ومرت ليال حالياتٌ ببشرها مزدانـه
سار بالصبية الزمان ووالى بأســاه وخيره دورانـه
فإذا الانطلاق سجنٌ كفاح أحكم الدهر حولهم قضبانه
أسلمتهم حيـاتهم لشباب قد قضوا فى نضالهم ريعانه
من حنين فى صوت ورقاء تشدو عرفوا الحب واجتنوا تحنانه
كلما جاءهم ربيعٌ جديد يشهد الزهر والهوى مهرجانه
وعن الفجر حين يبدو كبيراً ناشراً من وضاءة طيلسانه..
عرفوا لـذة ازدهار المعانى فى قلوب لنيلهـا ظمآنه
وتجيش النفوس بالأمل الحلو ليقضوا من الحياة لُبانه
الأنين المكتوم فى صدر كهل شحن العزم بالقوى شريانه
فى سبيل البقاء يفنى ويسقى من دموع ومن دم عيدانه
بذراع معروقة أثقلتهـا يدُ فأس يبثهـا أشجانه
يتولى زروعـه كصغـار وأب قد أذاب فيهم حنانه
للثرى عاش ثم فى ذات يوم سيوارى هذا الثرى جثمانـه

* * *

لوحة لا تزال تنبض بالريف ... صراعاً . . وعزة . . وأمانه
تدفع المرء للكفاح مريراً ... وتقوّى بنفسه إيمـانه
ولكم أضرمت شعور أديب ... عاش فيها وألهبت وجدانـه
ملأت صدره أحاسيس شتى ... صبغت بالأسى العميق بيانه
وسمعنا القريض من فم شاد ... أنطقت بالجميل منه لسانه
فجرى كالسهول صفوا وكالزر ... ع نماء وكالطباع .. رزانه
لفظه فى صلابة الأرض نسجاً ... والمعانى فى رقة الأقحوانه

* * *

أيها الهاتفون بالشعر حرًّا ... ولكم دعوة بـه طنـانه
قد أتيتم له بنهج غـريب ... يفرض اليوم بينكم سلطانه
وهجرتم توافه المتنـبى . . ... وأبنتم بعلمـكم نقصانه
وتشدقتمو بزخرف قـول ... عن مفاهيم نمقتها الرطـانه
ثم قلتم من الحياة كلاماً ... ومن الواقع استمد كيانه
ليس شعراً وإنما هو شىء ... فوقه الشعر رتبة ومكانه
ذهبت عنه روعة للحـون ... يرهف الدهر عندها آذانه
وخلا من أصالة وجـلال ... بهما أظهر الزمان افتتانه
إنه أبصر الحياة سقيما ... حاملا فى يمينه أكفانـه
أيعيش الوليد والداء يمشى ... بين جنبيه ناشراً سرطانه

* * *

إنما الشعر ما تدفق عذباً ... فى بناء فأحكموا بنيانـه

أسمعونا إذا استطعتم قريضاً لا خيالات جالس فى حانهْ
فإذا شقت القيود عليكم فدعوه لمن يصوغ جمانه
إننى ما رأيت فى الروض يوماً ما غراباً مزاحماً كروانه

* * *

أمن الفن أن يساق كلام ساذج باسم نهضة شيطانه ؟
طالعوا النور فى تراث القدامى وانظروا كيف أبدعوا تيجانه
سجلوا الواقع المراد ولكن جعلوا الفن عالياً ترجمانه
رسموا صورة الحياة لديهم فى جلاء بريشة فنانه

* * *

لا أنادى بأن تحاكوا زهيرا فيه أو أن تقلدوا حسانه
راح عهد الوقوف بالطلل البا كى فلا تذكروا به سكانه
جددوا ما استطعتمو فى المعانى وقفوا لا تحطموا أوزانه
ليست الفكرة الجديدة تأبى عرضها فى جزالة ورصانه
ألبسوها من القوافى خلودا ومن الوزن قوة ومتانه
لا تحيطوا تراثنا بلهيب فى غد تكره العيون دخانه
كل نهج أتى ليستر عجزاً نتقيه ونزدرى بهتانه
ربّ إنى على القديم مقيم وأعدّ الخلاص منه خيانه

مساكنكم يأيها النمل

تصور هذه القصيدة خلائق الشاعر واعتداده بنفسه ، كما تكشف عن عوامل الحقد التى سيطرت على نفوس حاسديه . نظم الشاعر هذه هذه القصيدة قبل مصرعه بقليل . . .

إلى ذروة العلياء سار بى الفعلُ
ومثلى للعليـــاء بين الورى أهـلُ

سموتُ بجـــدى وارتقت بى فضائلى
وليس أخو جد كمن طبعه الهزل

خُلقت أبيا يعشق المجـــد يافعــاً
إذا ما ونى[1] عن نيله فى الصبا كهل

وعشت بدفع الضيم والذل مغرماً
وأبذل فيــه الروح لو وجب البــذل

---

(١) ونى : ضعف ، كل .

وإنى لأُبــدى الود للخــل صادقاً
إذا كان فى الإخلاص قد صدق الخل
وإن شمتُ عنى فيه ميلا ورغبة
تبدّل منى الود وانقطع الوصــل
إذا أنا لم أعرف لــذى الحق حقه
فلا زانني حسنُ المكارم ، والأصل

* * *

ولــكنّ قوماً ـ لا عفا الله عنهم ـ
يرَون ذنوبى أن يدين بىَ النبــل
وما حيلتى فيهم ؟ وذنبى لديهمُ
مقامى حميداً حيث لا ينزل الــذل
تحملت منهم كل ما يغضب الفتى
وعند امتلاء الكيل قد يطفح الكيل
وأهونُ حى من يُــرى ذا عزيمة
ويسكت يوماً إن أساء له نــذل
وإنى وقد أنضجتُ غيظاً قلوبهم
على حين لم يسمع لدىّ لهم قــول

لئن شئت عاشوا فى ثيــاب مذلة
ولــكن لى عنهم بنيل العلا شغــل

لحى(١) الله جهالاً تــكاثر جهلهم
فسال به حزن وفاض به سهل

* * *

إذا رُمتَ أن تبقى من الود عندهم
فــكن مثلهم فى الناس شيمتك الجهل

وإن كنت تبغى العيش فى ظل حبهم
فلا يصطفيك العمرَ من دونهم فضل

أولو حسد قد ساءهم ما بلغته
فحقدهمُ وار وفى صدرهم غــل

يريدون بين الناس ذكراً ورفعــة
وظنــوا بأن المجــد إدراكه سهل

ودون بلوغ المجــد عزمٌ وفطنــة
وما لهمُ فى ذاك باعٌ ولا حــول

(١) لحى : قبح ، لعن .

وكم بذلــوا للنيــل منى جهودهم
فما بلغوا قصداً وفاتهم النيــل

وما أنا ممن يجحد الناس فضلهم
ولكنه خبث السريرة والدخل[1]

وكم فى عــداد العاجزين مكابرٌ
إذا جاء ضوء الصبح قال هو الليل

ومثلىَ لو شاءوا البــلوغ لمجــده
لأقعــدهم جــبن وأعجزهم عقــل

* * *

وذو سَفهٍ منهم مشى بنميمــة
فأهونُ تنـكيل يليق به القتــل

يذم لديك الغــير حتّى إذا مشى
إلى الغير لم يخطئك من كيده نصلْ

وآخر ذو وجهــين يلقاك باسماً
عليه ثياب البشر رقّ بها الغــزل

---

(١) الدخل : الداء ، العيب ، الريبة .

فشفّت عن الأحقــاد واللؤم تحتها
فظهره وُدٌّ وفى بُــرده صلُّ (١)

وكم لامهم فى شرهم كلُّ مصلح
فلم يهدهم لومٌ ولم يثنهم عذل

فيأيهـــا القـــوم الذين بلوتُهم
فأغرقنى من خبث أخلاقهم سيل

لقد جاءكم مـــنى سليمان فادخلوا
مساكنكم فى الأرض يأيها النمـــل

عيد الثورة

آخر ما نظم الشاعر ، وجدت على مكتبه يوم استشهد ومدادها لم يكد يجف بعد . . كان يريد أن يحيي بها الثورة فى عيدها السابع ٢٣ يولية ١٩٥٩ ولكن القدر اخترم حياته وأخلف موعده ، وبقيت هذه القصيدة بلا ختام . . . إلا الخاتمة الرهيبة لمأساة الشاعر الشهيد !

أعيدى قصـــة النصر ومـوعـــدنا مع الفجر
وزحف النور من غسق الدجى فى ساعة الصفر
فتلك حــكاية يا أمـــتى أحلى من العمـــر

* * *

. . وكان بهامش التـــاريخ شعب يائس ضائع
يباع ويشترى والحقـــد مطوى به جائـــع
وقد يعدو على الشارى ولا يقوى على البائع

* * *

.. وطال بنا الحنين إلى انبلاج الفجر يا بلدى
ويختنق الدعاء : متى سأفرش بالضياء غدى؟
مضوا يستعبدون أبى ولن يستعبدوا ولدى !

* * *

وجزارين قد شرعوا مُدى مجنونة الذبح
تعالت صيحة الأحرار فى إشراقة الصبح
جنود البعث قد جاءوا بنصر الله والفتح

* * *

وعاد النور فى الأرجاء يغسل جبهة الساجد
فيبنى صرح عزته قوى الروح والساعد
ويشهد تحت ظل البشر موكب مجده العائد
ويغمر صفحة الأيام حب الشعب للقائد

* * *

لقد عشنا وكان النصر فى أذهاننا فكره

... ...

... ...

دار المعارف بمصر

نوابغ الفكر العربى

مجموعة تعرض الفكر العربى على مر العصور وتزيد كل عربى معرفة بقدر آبائه ووعياً لتراث قومه وأمجاده .

● صدر منها :

ابن رشد – الجاحظ – الشيخ نجيب الحداد – محمود سامى البارودى – ابن زيدون – الشيخ ناصيف اليازجى – إخوان الصفا – بشار بن برد – بديع الزمان الهمذانى – أبو الفرج الأصبهانى – ابن الرومى – الفرزدق – السهروردى – الشيخ إبراهيم اليازجى – المتنبى – البحترى – الخنساء – ابن قتيبة – جرير – ابن المقفع – أبو حيان التوحيدى – ابن سينا – عبد الرحمن الكواكبى – رفاعة رافع الطهطاوى – خليل مطران – ولى الدين يكن – صفى الدين الحلى – البهاء زهير .

● متوسط صفحات الكتاب ١٢٠ صفحة قطع متوسط

● ثمن النسخة من كل فى هذه الكتب ١٥ قرشا

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

يونيه ١٩٦١

الثمن ٣٠ مليما

٣٠ قرشاً سورياً